

إِحْجَازُ الْقُرْآنِ

تأليف

القاضي السعيد شيخ السنة ولسان الملة

أبي بكر محمد بن الطيب الباقري

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

القاهرة

١٣٤٩

المطبعة السلفية - ومكنتها

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



إِحْجَازُ الْقُرْآنِ

تأليف

808
B16 jsh
1930

القاضي الدعييد شيخ السنة ولسان الملة

أبي بكر محمد بن الطيب الباقصوني

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

القاهرة

١٣٤٩

المطبعة السلفية - ومكنتها

مَقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين • وصلى الله على خير خلق الله أجمعين • سيدنا محمد وآله وصحبه وحملته هدايته • وسلم تسليماً كثيراً
أما بعد فإن أنبياء الله أقاموا على الناس الحجة بمعجزات كانت وزالت ، واختص الله خاتم أنبيائه صلوات الله عليه بمعجزة خالدة الى يوم الدين ، وهي القرآن الحكيم

ومن خير ما ألفه أئمة الهدى في بيان اعجاز كتاب الله كتاب القاضي أبي بكر البلاقلاني ، وإن للقاضي أكثر من مائة كتاب بادت كلها في مياه دجلة بكارثة التتار ، ولعل (اعجاز القرآن) هو الكتاب الوحيد الذي بقي من مؤلفات هذا الامام . وكان قد طبع في القاهرة عام ١٣١٥ ونفدت نسخته من سنين كثيرة ، فأعدنا طبعه الآن معارضاً بنسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية . وقد اقترح علينا المستشرق الشهير الاستاذ نلينو أن ندل في كل آية وردت في هذا الكتاب على رقم سورتها ثم على رقم الآية من تلك السورة ففعلنا . وأعاني على تصحيحه في بدايته صديقي الاستاذ السيد محمود محمد شاكر ، ثم قام بمثل هذه المروءة فضيلة الاستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد في بعض كرايس منه . فشكراً لها . وأرجو الله أن يجعل هذا الكتاب نافعاً ، وأن يثيبنا على نشره انه أكرم مسئول

محمد عبد الحليم

القاهرة : ربيع الثاني ، ١٣٤٩

أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني

شيخ السُّنة ، ولسان الأُمَّة : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد
ابن جعفر بن القاسم الباقلاني

نشأ نشأة العبقرية والنبوغ في مدينة البصرة أيام عزّها في القرن الرابع
الهجرة . وكانت البصرة يومئذ لا تزال على باب البادية (في موضع بلدة الزبير
الآن) وكانت عامرة بأعلام البيان ونحول علماء الاسلام : فيها رجال العلوم
العقلية الذين تبوّهوا مراتب الحكمة وقلّبوا في الكون أوجه النظر ، وفيها حفاظ
الشريعة الذين برّج الناس اليهم في فهم كتاب الله الحكيم وصيانة السُّنة من عبث
الوضاعين ودسّ الكذّابين ، كما كان في رجالها أهلُ الاهواء الذين يرون واجبا
عليهم هدم هذا الاسلام والثّار منه المجوسية والصابئية وسائر الظلمات التي
أشرق عليها نور القرآن فأزال غياها ، ونكس رموس أهلها ، وقضى على
أضاليلها وسفاهاتها . وبين أولئك وهؤلاء علماء التاريخ العارفون بوقائع الدهر
وحوادث الزمان . وزينة البصرة ومفخرتها يومئذ أهلُ العربية الذين انتهت
اليهم الامامة في فنونها وقوانين بيانها والاحاطة بمادتها والبصر في سُنن العرب
في كلامها ، لا اتصالهم بالأعراب الخُلص من صدر الاسلام الى أن شَيبت
الفصحى بغيرها

في هذا البحر المتلاطم بأمواج المعارف نشأ محمد بن الطيب الباقلاني ، فكان
من خير الناشئين في الاسلام : عقلا وعلماء وفصاحة لسان وسرعة بادرة
وقوة ادراك للحقائق

شيوخه

أخذ محمد بن الطيب العلم عن ابن مجاهد الطائي ، وهو أبو عبد الله محمد بن

أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد البصري المالكي صاحب الامام أبي الحسن الاشعري . وكان الباقلاني أخص تلاميذ ابن مجاهد وعنه أخذ علم الكلام وفقه مالك بن أنس وأصوله وانتفع بعلمه وصحبته ما شاء الله أن ينتفع ومن أساتذة الباقلاني الشيخ الصالح أبو الحسن الباهلي الذي كان يمدُّ جبلاً من جبال العلم ، وكان مع علمه متفرداً في الزهد والتقوى واعتزال الناس ، فكان يحلوه في جميع أوقاته أن يخلو بربه فلا يخرج من خلوته هذه الا الى درس في العلم يلقيه على مثل طبقة الباقلاني وابن فورك والاسفراييني ، وكان منهم في حجاب يرخي الستر بينهم وبينه كيلا يروه ، لانه كان يريد أن لا يراه غير ربه ، وكان يريد أن لا يتعلق قلبه الا بالله عز وجل . وأبو الحسن الباهلي هذا كان أيضاً من أخص الناس بالشيخ أبي الحسن الاشعري

قالوا ومن شيوخه القطيعي ، ونحسبه أبا بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي (نسبة الى قطيعة الرقيق ببغداد) وكان مسند العراق في القرن الرابع توفي سنة ٣٦٨

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الابهري المالكي ، وأبو أحمد الحسين ابن علي النيسابوري ، وأبو محمد بن مامي ، وأبو بكر بن مالك وغيرهم ومن زملاء الباقلاني في طلب العلم أمثال أبي اسحق ابراهيم بن محمد الاسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ ، وإني بكر محمد بن الحسن بن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ ، وكان هؤلاء الثلاثة مضرب المثل في النبوغ حتى قال فيهم الأديب الاكبر الوزير صاحب بن عباد : « ابن الباقلاني بحر مفرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفراييني نار تحرق » . قال الحافظ ابن عساكر : وكان روح القدس نفث في روع صاحب بن عباد حيث أخبر عن هؤلاء الثلاثة بما هو حقيقة الحال فيهم

ظهور الباقلاني

وأول حادثة كبرى في حياة الباقلاني استدعاؤه الى شيراز لمناظرة المعتزلة في مجلس عضد الدولة فناخسرو . وكانت شوكة المعتزلة شديدة في العراق الى أن كان زمن هذا الملك ، وكان قاضي القضاة في وقته معتزلياً ، فقال له فناخسرو يوماً : — هذا المجلس عامر بالعلماء ، ألا أني لا أرى أحداً من أهل السنة والاثبات ينصر مذهبه

فقال له قاضي القضاة : — ان أهل السنة والاثبات عامة راع أصحاب تقليد وأخبار وروايات ، يروون الخبر وضده ويعتقدونهما وأحدهما ناسخ للثاني أو متأول ، ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر فقال الملك : — محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر ينصره ، فانظروا أي موضع يكون مناظر ليكتب فيه ويحضر مجلسنا فلما عزم في ذلك قال له قاضي القضاة المعتزلي :

— أصلح الله الملك أخبروني أن بالبصرة رجلين — شيخاً وشاباً — أحدهما يعرف بأبي الحسن الباهلي ، والشاب يعرف بابن الباقلاني وكانت حضرة الملك يؤمّن بشيراز ، فكتب الملك الى العامل ليعينهما اليه ، وأطلق مالا لتفتقهما من طيب المال . قال القاضي أبو بكر الباقلاني : فلما وصل الكتاب إلينا قال للشيخ (يعني أبا الحسن الباهلي) وبعض أصحابنا :

— هؤلاء القوم فسقة لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال ان مجلسه مشتمل على أصحاب الحبار كلهم ، ولو كان ذلك لله عز وجل خالصاً تهضت ، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم

فقال القاضي : — كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهما من المتكلمين : ان المأمون لا يحضر مجلسه ا حتى يساق احمد الى طرسوس ثم مات المأمون وردّوه الى المعتصم ، فامتحنه وضربه ، وهؤلاء أسلموه ، ولو مروا اليه وناظروه لكفّوه عن هذا الأمر ، فانه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على

دعائهم . . . وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ماجرى على أحمد ، ويقولون بخلق القرآن ونفي رؤية الله تعالى ، وها أنا خارج ان لم تخرج قال : تفرجت مع الرسول نحو شيراز في البحر حتى وصلنا إليها . ثم ذكر من دخوله على الملك ومناظراته مع المعتزلة وقطعه أيام ما ذكر وقد بلغ من احترام الملك عضد الدولة فناخسرو هذا العالم الشاب النابغة أن دفع إليه ابنه يعلمه مذهب أهل السنة ، وألف له كتاب (التمهيد)

سيرته وعلو همته

قل الحافظ ابن عساكر : كان القاضي أبو بكر رضي الله عنه فارس هذا العلم مباركا على هذه الأمة ، وكان يلقب شيخ السنة ولسان الأمة ، وكان . . . فاضلا متورعا ممن لم تحفظ عليه زلة قط ، ولا انتسبت إليه نقيصة ، وكان حصنا من حصون المسلمين

وبكفي لتعلم علو همة هذا الرجل العظيم أن تراقب استعماله لوقته ترى كيف كانت حياته مباركا فيها . فقد كان نوابغ الطلبة يزدهجون على باب منزله في نهر طابق ببغداد لينتلقوا دروس العلم منه نهاره وأكبر ليله ^(١) . وكانت له في جامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة يجلس فيها مجلسا عاما يحضره علماء المذاهب ورجال الدولة ودعاة النحل المختلفة فيسمعون من معارفه العجب العجيب . ومثل هذا العمل في منزله وفي جامع المنصور كاف ليكون القائم به محسنا إلى العلم والدين . ولكن القاضي الباقلاني لم يكن يقتنم من حياته بهذا وحده ، بل كان يزيد عليه أنه كان كل ليلة إذا صلى العشاء وقضى رده وضع الدواة بين يديه وكتب خمسا وثلاثين ورقة نصيفا من حفظه . ثم ينام فإذا استيقظ وصلى الفجر دفع ما كان كتبه قبل النوم إلى بعض أصحابه وأمره بقراءته عليه ، وفي خلال ذلك يلي عليه الزيادات فيه

(١) من نوابغ تلاميذه أبو عبد الله الأزدي وأبو طاهر البغدادي الناسك ، وقد رحلا إلى القيروان وانتفع الناس هناك بهما ومواهبهما

على سبيل التحية : كيف أنت ، وكيف الاهل والاولاد ؟ فتعجب الرومي وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الامة ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الاهل والاولاد ؟ فأجابه القاضي أبو بكر : رأيناكم لا تزهون الله سبحانه عن الاهل والاولاد ، فهل المطارنة عندكم أقدم وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟

وأراد كبير الروم أن يخزي القاضي فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبيينا ومريم أم المسيح . فاما زوج نبيينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وقد يرءها الله مما رُميتا به . فانقطع الرومي ولم يجر جوابا

مصنفاته

قال أبو بكر الخوارزمي : كل مصنف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه ، سوى القاضي أبي بكر كان صدره حوى علمه وعلم الناس . وقال علي بن محمد بن الحسن الحربي المالكي : كان القاضي أبو بكر يهيم بأن يختصر ما يصنفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه . وما صنف أحد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي فان جميع ما كان يذكر من خلاف الناس فيه صنفه من حفظه

وقد رأيت آنفا كيف ان القاضي الباقلاني كان يصنف في كل ليلة خمسا وثلاثين ورقة . ولما توفي القاضي أمر الشيخ أبو الفضل التميمي مناديا أن ينادي بين يدي جنازته « هذا ناصر السنة والدين ، هذا امام المسلمين ، هذا الذي كان يذب عن الشريعة السنة المخالفين ، هذا الذي صنف سبعين ألف ورقة رداً على الملحدين » . هذا ما نودي به يوم وفاة هذا الامام العظيم ، ولا شك في أن مؤلفاته كانت موجودة في تركته ، اذ كانت تتداولها أيدي علماء بغداد وأفاضل الامصار . ولكن أين هي الآن هذه المؤلفات ؟ لقد قدناها وبالاسف وصرنا لا نستطيع

الوصول الى أممائها . وأخشى أن يكون أثره الوحيد الباقي بين أيدينا هو كتاب
(اعجاز القرآن) دون غيره من مصنفاته التي تكاد تملأ خزانة
أما الكتب التي بقي اسمها وفُتد رسمها فمنها كتاب له في (الملل والنحل) ،
وآخر اسمه (الانتصار) وثالث عنوانه (كشف أسرار الباطنية) وكتاب
(التمهيد) الذي ألفه لابن الملك عضد الدولة . وذكر صاحب كشف الظنون كتاباً
بمعنوان (هداية المسترشدين في الكلام) لأبي بكر بن الباقلاني الشافعي ، ولا
أدرى هل كلمة « الشافعي » من زيادات النساخ والطابعين أم هي خطأ من المؤلف
أم الكتاب لغير هذا الامام

مذهبه

لا شك أنه كان من فقهاء المالكية ، وقد ترجم له ابن فرحون في الديباج
المذهب وعدّه من الطبقة السابعة من أهل العراق ^(١)
هذا مذهب الفقهي . وأما مذهب الكلامي فانه كان أشعرياً كما علمت ، وله في
كتب الكلام آراء منسوبة اليه ، من ذلك أنه كان يقول بالواسطة بين الموجود
والمعدوم ، لانه ذهب الى أن المعلوم ان لم يتحقق أصلاً فهو المعدوم وان تحقق
بوجه فإن لم يكن باعتبار ذاته فهو الحال وعرفوه بأنه صفة لموجود لا موجودة ولا
معدومة وان كان فهو الموجود في الخارج ^(٢)

ومن مواطن الخلاف بين المعتزلة والاشاعرة مسألة القدرة ونسبتها الى العبد ،
فالمعتزلة كانوا يشتعنون على الامام أبي الحسن بأن قدرة العبد لم تكن مؤثرة
فتسميتها قدرة مجرد اصطلاح . فان القدرة صفة مؤثرة على وفق الارادة . وبأن

(١) ان القاضي ابا بكر الباقلاني ائتمن قيامه في نصرة مذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري صار يقال
له الاشعري . فالتبس الامر على الناس في بعض الاحيان حتى اذا عزي امر الى القاضي ابي بكر الاشعري
(اي الباقلاني) يظن ان المراد الامام ابو الحسن الاشعري . وعلى هذا يحمل وم . من توم ان ابا الحسن
الاشعري كان مالكيّاً فان منشأ ذلك ان ابا بكر الباقلاني هو المالكي . فلما قال من قال الاشعري مالكي - فهو
يريد ابا بكر الباقلاني - ظن من سمع ذلك ان ابا الحسن الاشعري مالكي وليس كذلك (انظر طبقات
الشافعية للسي ٢ : ٢٥٥)

(٢) انظر اول رسالة البصائر من علم الكلام للشيخ عبد الصمد بن محمود السكردى

٥- ريسيه السيوطي في
« حشمة الحاضرة » في
ترجمة الباقلاني (٢٥٠/٢)
« كشف الأسرار » و« كشف
الأسرار » ١٤١ هـ . وكتب
« كشف البرقة في النظر »
١٣٦٥/٢/٢٨

الفرق بين القدرة والعلم بتأثير القدرة وعدم تأثير العلم وبأنه لما لم يكن للعبد اختيار فلا يستحق الثواب والعقاب . والاشاعة ومن يذهب مذهبهم يردون على المعنزة بان القدرة ليست صفة مؤثرة بالفعل ، بل صفة من شأنها التأثير على وفق الارادة ، سواء أثمرت بالفعل أو لم تؤثر ، وبه يحصل الفرق بينها وبين العلم ، اذ ليس من شأن العلم التأثير المذكور . والكسب عند الاشعري مقارنة الفعل للقدرة والارادة من غير أن يكون للقدرة تأثير ولا للعبد مدخل سوى كونه محلاً للفعل . وللقاضي الباقلاني مذهب في الفرق بين القدرة والكسب هو أن الكسب ما يقع به المقدور في محل القدرة ، ولا يصح انفراد القادر به في وجود المقدور ، والخلق بخلافه ^(١) ونسب اليه صاحب روضات الجنات ^(٢) القول بعدم استعمال المصطلحات الشرعية في خلاف معانيها اللغوية أبداً ولو مجازاً ، بزعم أن الخصوصيات المؤثرة من جانب الشارع المقدس شروط صحة لها خارجة عن أصول تلك المسحيات ، نظير ما يقوله الذاهبون الى وضع الحقائق الشرعية للاعم من الصحيحة منها والفاصلة نظراً الى صحة الاطلاق عليه ، فلا نقل عنده الى احد من تلك المعاني المجمولات . وان قيل ان المشهور اختياره للمذهب الثاني في الحقائق الشرعية ، وهو كونها مجازات لغوية

وفاته

وكانت وفاة هذا الامام آخر يوم السبت لست بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ ودفن يوم الاحد لسبع بقين منه ، وصلى عليه ابنه الحسن . ودفن أولاً في داره بنهر طابق ، ثم نقل الى مقبرة باب حرب ودفن فيها بقرب قبر الامام احمد بن حنبل رضي الله عنها . ومما رثي به :

أنظر الى جبل تمشي الرجال به وانظر الى القبر ما يحوي من الصلوات
وانظر الى صارم الاسلام منعمداً وانظر الى درة الاسلام في الصدف

(١) انظر حاشية الكتبوي على العقائد العنصرية ص ٢٥٦

(٢) من الشيعة . انظر ص ٦١٦ (٤ : ١٧٧) منه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان، والمتمم احسانه بما أقام لهم من جلي البرهان * الذي حمد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيراً ونذيراً، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً * وهادياً الى ما ارتضى لهم من دينه، وسلطاناً أوضح وجه تبينه * ودليلاً على وحدانيته، ومرشداً الى معرفة عزته وجبروته * ومفصلاً عن صفات جلاله، وعلو شأنه وعظيم سلطانه * وحجة لرسوله الذي أرسله به وعلمها على صدقه، وبينه على أنه أمينه على وحيه وصادع بأمره * فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحملة، ورسالة تشتمل على نصحيح قول مؤدبها، يتن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها الى بيته تعدوها، أو حجة تتلوها * وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، والتشكك في المشاهدات * ولذلك قل عز ذكره (٧:٦) * «ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقل الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» وقال عز وجل (١٥:١٤-١٥) * «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» * فله الشكر على جزيل احسانه وعظيم مننه * والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله وسلم

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبينهم ﷺ برهانا، ولمعجزته ثبناً وحجة. لاسيما والجهل بمدود الرواق، شديد النفاق، مبشول على الآفاق. والعلم الى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس. وآله

في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشليم . حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبيله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشده ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود في صنعته . فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين ، في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قلّ أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله ، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول . على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قائل قل انه سحر ، وقائل يقول انه شعر ، وآخر يقول انه أساطير الأولين ، وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، الى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه اليه . وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه . وليس هذا ببديع من ملحده هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظم ما يقولونه اخوانهم من ملحده قريش وغيرهم إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول أمره استبان رشده ، وأبصر قصده ، فتاب وأناب ، وعرف من نفسه الحق بغيرزة طبعه وقوة اتقانه ، لا لتصرف لسانه ، بل لهداية ربه وحسن توفيقه . والجهل في هذا الوقت أغلب ، والملحدون فيه عن الرشده أبعد ، وعن الواجب أذهب . وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل السكتب النافعة في معاني القرآن ، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ، أن يسطوا القول في الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء ، ودقيق الكلام في الأعراض ، وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو ، فالخاجة الى هذا أمس ، والاشتغال به أوجب . وقد قصر بعضهم في هذه المسألة ، حتى أدى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها ، ورأوا أن عجز أصحابهم

عن لفظة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ولا وجه لها ، حين رأوهم قد
برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا الى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا . ثم رأوا
ما صنّفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مستوفى في وجهه ، قد أخل بهذيب
طرقه ، وأهمل ترتيب بيانه . وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه ، وذهاب
عنه ، لأن هذا الباب مما يمكن احكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل ، عظيمة
المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المآخذ . واذا انتهينا الى تفصيل القول فيها
استبان ما قلناه من الحاجة الى هذه المقدمات ، حتى يمكن بعدها إحكام القول في
هذا الشأن . وقد صنّف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله
المنكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى
وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك
التي تعرض للجهال وتنتهي الى ما يخطر لهم ويعرض لافهامهم من الطعن في وجه
المعجزة . فأجبناه الى ذلك متقربين الى الله عز وجل ومتوكلين عليه وعلى حسن
توفيقه ومعونته * ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ، ونشير اليه ، ولا نبسط
القول اثلا يكون ما ألقناه مكررا ومقولا ، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب
خاصة ، ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه
الكلام ، وما يختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما
يشبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة
بلسان العرب في أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون
ما ينقسم اليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من بحاري الخطاب
وان كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفصيح وتقصد فيه البلاغة ،
لأن هذه أمور يتعمل لها في الاغلب ، ولا يتجاوز فيها . ثم من بعد هذا الكلام
الدائر في محاوراتهم ، والتفاوت فيه أكثر لأن العمل فيه أقل . إلا من غزارة

طبع أو فطانة تصنع وتكلف ، ونشير الى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق
ليعرف عظيم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد
الذي يصح أو يجوز ان يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على منأمل . ولسنا
نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا ببياننا وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن
معرفة الادب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ، لان ذلك مما لا سبيل اليه إلا ان
يكون الناظر فيها معرض عليه مما قصدنا اليه من أهل صناعة العربية قد وقف على
جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين
ونظر في شيء من أصول الدين . وإنما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من
وصفناه فقال (٤١ : ٣) « كتاب فُصِّلَتْ آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون »
وقال (٤٣ : ٣) « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »



فصل

﴿ في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن ﴾

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة اعجاز القرآن ، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة وان كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ، وتقل بعضها تقلا متواتراً يقع به العلم وجوداً ، وبعضها مما قل تقلا خاصاً إلا أنه حكى بمشهد من الجمع العظيم أنهم شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لا نكره أولاً نكره بعضهم خلل محل المعنى الأول وان لم يتواتر أصل النقل فيه . وبعضها مما قل من جهة الآحاد ، وكان وقوعه بين يدي الآحاد . فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقليين وبقيت بقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد ، وان كان قد يعلم بمعجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله وجه دلالة فيغنى ذلك عن نظير مجدّد في عجز أول العصر عن مثله ، وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الاتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول . وانما ذكرنا هذا الفصل لما حكي عن بعضهم انه زعم أنه وان كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه . ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم . ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه . فأما الذي يبين ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه سور كثيرة وآيات نذكر بعضها وننبه بالذكر على غيره ، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه . فمن ذلك قوله تعالى (١٤ : ١) « الر كتاب أنزلناه إليك

لتُخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد »
 فأخبرانه أنزله ليقم الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ، ولا تكون
 حجة ان لم تكن معجزة ، وقال عز وجل (٩ : ٦) « وان أحد من المشركين
 استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » فلو لا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره
 على سماعه ولا يكون حجة الا وهو معجزة ، وقال عز وجل (٢٦ : ١٩٤)
 « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من
 المنذرين » وهذا بين جداً فيما قلناه من انه جعله سبباً لكونه مندرجاً . ثم
 أوضح ذلك بأن قل (٢٦ : ١٩٥) « بلسان عربي مبين » فلو لا أن كونه بهذا
 اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به ، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف
 المقطعة الا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه . ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك
 على ما بعده ، وكثير من هذه السور اذا تأملته فهو من أوله الى آخره مبني
 على لزوم حجة القرآن والتنبية على وجه معجزته . فمن ذلك سورة
 المؤمن (٤٠ : ١ - ٦) قوله عز وجل « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز
 العليم » ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله تعالى « غافر الذنب ، وقابل
 التوب ، شديد العقاب » الى أن قل « ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا »
 فدل على أن الجدل في تنزيله كفر وإلحاد . ثم أخبر بما وقع من تكذيب
 الأمم برسلهم بقوله عز وجل « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم »
 الى آخر الآية ، فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنوبهم في تكذيب الانبياء ورد
 براهينهم فقال تعالى « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم توعدهم بالنار ، فقال
 تعالى « وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ثم عظم
 شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم وما وعدهم عليه من
 المغفرة فقال تعالى (٤٠ : ٧) « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فلغفر
للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » فلو لا انه برهان قاهر لم يذم
الكفار على العدول عنه ولم يحمد المؤمنين على المصير اليه . ثم ذكر تمام الآيات في
دعاء الملائكة المؤمنين ، ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات ثم قال (١٣: ٤٠)
« هو الذي يرىكم آياته » فأمر بالظفر في آياته وبراهينه الى أن قال (١٥: ٤٠) « رفيع
الدرجات ذو العرش » يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم
التلاق « فجعل القرآن والوحي به كالروح ، لأنه يؤدي الى حياة الأبد ، ولأنه
لا فائدة للجسد من دون الروح ، فجعل هذا الروح سبباً للانذار وعلماً عليه وطريقاً
اليه ، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع به الانذار والاخبار عما يقع عند
مخالفته ولم يكن انطباع عن الواقع في الآخرة عند ردهم دلالة من الوعيد حجة
ولا معلوما صدقه فكان لا يلزمهم قبوله . فلما خُص من الآيات في ذكر الوعيد
على ترك القبول ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات
فقال (٢١: ٤٠) « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا
من قبلهم » الى آخر الآية ثم بين أن عاقبتهم صارت الى السوء بأن رؤسهم كانت
ثانيهم بالبينات وكانوا لا يقبلونها منهم فلم أن ما قدم ذكره في السورة بينة رسول
الله ﷺ ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ومجيئهما بالبينات ومخالفتهما
حكمها الى أن قال تعالى (٣٥: ٤٠) « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم
كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »
فأخبر أن جداهم في هذه الآيات لا يقع بحجة وانما يقع عن جهل وأن الله يطبع
على قلوبهم ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان الجحودهم وعنادهم واستكبارهم ، ثم
ذكر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد ثم قال تعالى (٦٩: ٤٠) « ألم تر الى
الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون » ثم بين هذه الجملة وأن من آياته

الكتاب فقال (٧٠:٤٠) «الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا فسوف يعلمون» الى أن قل (٧٧: ٤٠) «وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله» فدل على أن الآيات على ضربين: أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر ويقع عندها العلم الضروري وأنها اذا جاءت ارتفع التكليف ووجب الاهلاك. الى أن قل تعالى (٨٥:٤٠) «فلم يك ينفعهم إيمانهم لمسا رأوا بأسنا» فأعلمنا انه قادر على هذه الآيات، ولكنه اذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين. وكذلك ذكر في «حم» السجدة على هذا المنهاج الذي شرحنا، فقال عز وجل (٤١:٤-٤) «حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كذَّبَتْ فَصَاةٌ آيَاتِهِ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بشيراً ونذيراً» فلولا انه جعله برهاناً لم يكن بشيراً ولا نذيراً، ولم يختلف بأن يكون عربياً مفصلاً أو بخلاف ذلك. ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله تعالى «فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» ولولا انه حجة لم يضرهم الاعراض عنه

وليس لقائل أن يقول قد يكون حجة وبحاجة في كونه حجة الى دلالة أخرى كما أن الرسول ﷺ حجة ولكنه يحتاج الى دلالة على صدقه وصحة نبوته. وذلك انه انما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل ولم يذكر حجة غيره. ويبين ذلك انه قال عقيب هذا (٦٠:٤١) «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي» فأخبر انه مثلهم لولا الوحي. ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال (٤١: ٨) «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل وعرفوا هذه الحجة. ثم تصرف في الاحتجاج على الوحدانية والقدرة الى ان قل (٤١: ١٣) «فإن أعرضوا قفل أنذرتم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد

ونعود في الدنيا ثم توعدهم بأمر الآخرة فقال (٤١ : ١٩) « ويوم يُبْخَشِرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » إلى انتهاء ما ذكره فيه . ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال (٤١ : ٢٦) « وَقُلِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِبُونَ » ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول فقال (٤١ : ٣٠) « إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا » ثم قال (٤١ : ٣٦) « وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » وهذا ينبه على أن النبي ﷺ يعرف إعجاز القرآن ، وأنه دلالة له على جهة الاستدلال ، لأن الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان ، ونحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل في موضعه . ثم قال (٤١ : ٤٠) « إِنْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » إلى أن قال (٤١ : ٤١-٤٢) « إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ لَكِتَابًا عَزِيزًا ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » وهذا وإن كان متأولا على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الأولين وأخبار المرسلين ، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أبدأتها تقع في الثاني فلا يخرج عن أن يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة قدح في معجزته أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته ، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه . ثم قال (٤١ : ٤٤) « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي » فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده ، أما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم - وكانوا يعتدرون بذهابهم عن معرفة معناه ، وبأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم - أو بغير ذلك من الأمور ، وأنه إذا تحدثوا إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به ، على ما نبينه في وجه هذا

الفصل، الى أن قل (٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور، فنكرهنا سرد القول فيها، فليتنامل المتأمل ما دللناه عليه بجده كذلك

ثم ما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥٠ - ٥١) « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه، وان ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم، ويدل عليه قوله عز وجل (٢٥ : ١) « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » وقوله (٤٢ : ٢٤) « أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك وبحوث الله الباطل ويحقق الحق بكلماته » فدل على انه جعل قلبه مستودعاً لروحيه، ومستنزلاً لكتابه، وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره، وكان له حكم دلالة على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها . فبان بهذا وبظواهر ما قلناه من أن بناء نبوته ^{صلى الله عليه وسلم} على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالة على نفسه وصدقه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد ووصف مضاف اليها، لان نظمها ليس معجزاً، وان كان ما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لانه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه، وحل في هذا من وجوه محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى، لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم انه في الحقيقة كلامه . وكذلك من يسمع القرآن يعلم انه كلام الله

وان اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه لان موسى عليه السلام سمعه من الله عز وجل وأسمعه نفسه متكلماً ، وليس كذلك الواحد منا . وكذلك قد يختلفان في غير هذا الوجه ، وليس ذلك قصدنا بالكلام في هذا الفصل . والذي نرومه الآن ما بيننا من اتفاقهما في المعنى الذي وصفنا ، وهو انه عليه السلام يعلم ان ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال



فصل

﴿ في الدلالة على أن القرآن معجز ﴾

قد ثبت بما يتنا في الفصل الاول ان نبوة نبينا ﷺ مبينة على دلالة معجزة القرآن ، فيجب ان نبين وجه الدلالة من ذلك * قد ذكر العلماء ان الاصل في هذا هو ان تعلم ان القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ ، وانه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة . والطريق الى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به . وذلك انه قام به في المواقف ، وكتب به الى البلاد وتحمله عنه اليها من تابعه ، وأورده على غيره من لم يتابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشبهه على أحد ، ولا يحيل انه قد خرج من أنى بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس ، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها وتعدى الى الملوك المصاحبة لهم كمالك الروم والمعجم والقبط والحش وغيرهم من ملوك الاطراف . ولما ورد ذلك مضادا لاديان أهل ذلك المصر كلهم ومخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر ، وقف جميع أهل الخلاف على جملته ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايان على جملته وتفصيله . وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال ، وتنقلت به الرحال ، وتعلمه الكبير والصغير . اذ كان عمدة دينهم ، وعلماء عليه ، والمفروض تلاوته في صلواتهم ، والواجب استعماله في أحكامهم . ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى اليها ما وصفناه من حاله ، فلن يتشكك أحد ولا يجوز ان يتشكك مع وجود هذه الاسباب في انه أنى بهذا القرآن من عند الله ، فهذا أصل . واذا

ثبت هذا الاصل وجودا فانا نقول انه تحداهم الى ان يأتوا بمثله ، وقرعهم على ترك الاتيان به طول السنين التي وصفناها فلم يأتوا بذلك ، والذي يدل على هذا الاصل اننا قد علمنا ان ذلك مذكور في القرآن في المواضع الكثيرة كقوله (٢٣: ٢-٢٤) « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، قن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » وكقوله (١١: ١٣-١٤) « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » فجعل عجزهم عن الاتيان بمثله دليلا على انه منه ودليلا على وحدانيته . وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم انه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية وزعم ان ذلك مما لا سبيل اليه الا من جهة العقل ، لان القرآن كلام الله عز وجل ولا يصح ان يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا . فقلنا اذا ثبت بما نبينه اعجازه وان الخلق لا يقدرون عليه ثبت ان الذي أتى به غيرهم ، وانه انما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم . وانه صدق ، واذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا ، وليس اذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع ان يعرف من الوجهين . وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل لانه خارج عن مقصود كلامنا ، ولكننا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه ، ومن ذلك قوله عز وجل (١٧: ٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقوله (٣٣: ٥٢-٣٤) « أم يقولون نقول به بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » فقد ثبت بما بيناه انه تحداهم اليه ولم يأتوا بمثله

وفي هذا أمران : أحدهما التحدي اليه ، والاخر أنهم لم يأتوا له بمثل . والذي

يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين . وإن قل قائل لعلمه لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدى وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن كان ذلك قولاً باطلاً يعلم بطلانه مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جبل وأنه كتم وسيظهره المهدي . أو يدعى أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما حيث وضع المصحف . أو يدعى فيه زيادة أو نقصاناً . وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووعد الحق . وحكاية قول من قل ذلك يغني عن الرد عليه لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الاسفار والحضر وضبطوه حفظاً من بين صغير وكبير وعرفوه حتى صار لا يشبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان ، ولا التخليط فيه والكتمان ، ولو زادوا ونقصوا أو غيروا أظهروا ، وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره - على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا أن يحفظ كحفظه ، ولا أن يضبط كضبطه ، ولا أن تمس الحاجة إليه مساسها إلى القرآن - لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت لأبطل غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه ، وأنكره أربابه . فإذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرئ القيس ونظرائه مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية ، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكره في القرآن مع شدة الحاجة إليه في أصل الدين ، ثم في الأحكام والشرائع واشتغال الهمم المختلفة على ضبطه : فمنهم من يضبطه لأحكام قراءته ومعرفة وجوها وصحة أدائها ، ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه ، ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ، ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ، ومن الملحنين من يحصله لينظر في عجيب شأنه . وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة أعدادهم واختلاف بلادهم وتفاوت

أغراضهم أن يجتمعوا على التغير والتبديل والسكنان . ويبين ذلك أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا ، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم وقولهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وقول بعضهم (٣٨ : ٧) « إن هذا الا اختلاق » ^(١) الى الوجوه التي يصرف اليها قولهم في الطعن عليه فمنهم من يستهين بها ويجعل ذلك سبباً لتركه الاتيان بمثله ، ومنهم من يزعم انه مقترى فلذلك لا يأتي بمثله ، ومنهم من يزعم انه دارس وأنه أساطير الاولين . وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحدي لثلاثه لثلاثه . ولو جاز أن يكون بعضه مكتوماً جاز على كله ولو جاز أن يكون بعضه موضوعاً جاز ذلك في كله فثبت بما بيناه انه تحدى اليه وأنهم لم يأتوا له بمثل . وهذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه . فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده أن تركهم للاتيان بمثله كان لعجزهم عنه . والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن انه تحداهم اليه حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدقه ونبوته وتضمن احكامه استباحة دماءهم وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال واكثر المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الاوطان وعن تسليم الاهل والذرية للسبي . فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها يبين ذلك ان العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المسكايد لا سيما مع استعظامه ما بدعه بالجنبيء من خلع آلهته وتسفيه رأيه في ديانته وتضليل آبائه والتغريب عليه بما جاء به واظهار أمر يوجب الاقياد لطاعته والتصرف

(١) اسم الاشارة هنا راجع الى قولهم (٣٨ : ٥) « أجبل الآلهة الها واحدا »

على حكم ارادته والعدول عن الفه وعادته والانخراط في سلك الاتباع بعد أن كان متبوعا والتشيع بعد أن مشيعاً ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه اياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله . وقد علم أن بعض هذه الاحوال مما يدعو الى سلب النفوس دونه . هذا والحية حيتهم والهمم الكبيرة همهم وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا الى الرد عليه والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر ، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطمئع والرتبة التي ليس وراءها منزع ؟ ومعلوم أنهم لو عارضوه بما نكدهم اليه لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشيت أسبابه ، وكان من صدق به يرجع على أعقابهم ويمود في مذهب أصحابه . فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً ويملو شيئاً فشيئاً وهم على العجز عن القدح في آيته والظعن في دلالته ، علم مما بينا انهم كانوا لا يقدرّون على معارضته ولا على توهين حجته . وقد اخبر الله تعالى عنهم انهم (٤٣ : ٥٨) « قوم خصمون » وقال : (١٩ : ٩٧) « وتنفّر به قوماً لداً » وقال (١٦ : ٤) « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » . وعلم ايضاً ان ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين » وقولهم (٢٨ : ٣٦) « ما هذا الا سحر مقترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين » وقالوا (١٥ : ٦) « يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون » وقالوا (٢١ : ٣) « افنأتون السحر وانتم تبصرون » وقالوا (٣٧ : ٣٦) « ائنا لناركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٢٥ : ٤-٥) « وقال الذين

كفروا أن هذا الا افك اقترأه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً
وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملئ عليه بكرة واصيلاً (٢٥ : ٨) وقال
الظالمون ان تتبعون الا رجلاً مسحوراً وقوله (١٥ : ٩١) الذين جعلوا
القرآن عريضين ، الى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في
أمرهم متعجبين من عجزهم يفزعون الى نحو هذه الامور من تعليل وتفسير ومدافعة
بما وقع التحدي اليه ، وعرف الحث عليه . وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب
وجاهروه وناشدوه وقطعوا الارحام وأخطروا بأنفسهم وطالبوه بالآيات
والاثيان ^(١) وغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ليظهروا عليه بوجه
من الوجوه . فكيف يجوز أن يقدرُوا على معارضته القريبة السهلة عليهم
بذلك يدحض حجته ويفسد دلالاته ويبطل أمره . فيعدلون عن ذلك الى سائر
ما صاروا اليه من الامور التي ليس عليها مزيد في المناظرة والمعاداة ويتركون
الامر الخفيف ؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتقانه ^(٢) من العقلاء .
والى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه .
ويمكن ان يقال أنهم لو كانوا قادرين على معارضته والاثيان بمثل ما أتى
به لم يجوز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلافة
والعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته
وانهم يضعفون عن مجاراته . ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي
به ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويذكر آماله فيهم وينجح ما يسعى له بتركهم
المعارضة . وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه وتفخيم أمره حتى يتلو قوله تعالى
(١٧ : ٨٨) قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

(١) هنا في الاصل ياض يقدم لكاتبين

(٢) كذا في المخطوطة والطبعة

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقوله (١٦ : ٧) « يُنَزَّلُ
 الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلِيٍّ مِنْ إِيَّاهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 أَنَا فَاتَّقُونِ » وقوله (١٥ : ٨٧) « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْقُرْآنَ
 الْعَظِيمَ » وقوله (١٥ : ٩) « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » وقوله
 (٤٣ : ٤٣) « وَإِنَّ لِلَّذِي ظَلَمَ لَكَ وَلِقَوْمَكَ وَسُوفَ تُسْأَلُونَ » وقوله (٢ : ٢) «
 هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » وقوله (٣٩ : ٢٣) « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
 مُثَشَّاهًا مَثَانِي تَقْشَعْرَةً مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
 إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » إلى غير ذلك من الآيات التي تتضمن تعظيم شأن القرآن .
 فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها ومنها ما ينفرد فيها ، وذلك مما
 يدعوهم إلى المبالاة ويحضرهم إلى المعارضة وإن لم يكن متحدثا إليه . ألا ترى
 أنهم قد كان ينافروا شعراؤهم بعضهم بعضا ولهم في ذلك مواقف معروفة وأخبار
 مشهورة وأيام منقولة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والطلاقة
 ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فلن يجوز والحال هذه أن يتغافلوا عن
 معارضته لو كانوا قادرين عليها ، نحمد الله الذي لم يتحدثهم . ولو كان هذا
 القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر ، وهو أنه لو كان مقدورا
 للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعضه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه
 به ، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه وتعمل نظمه في الحال ، فلما لم نرهم
 احتجاجوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا
 عارضوه به فقالوا هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله ، علم أنه لم يكن
 إلى ذلك سبيل وأنه لم يوجد له نظير ولو كان وجد له مثل لكان ينقل الينا
 ولعرفناه كما نقل الينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب
 وأدى الينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع

بلاغتهم وصنوف فصاحتهم
 قال قيل : الذي بنى عليه الامر في تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدي
 الى الاتيان بمثله وانهم عجزوا عنه بعد التحدي اليه ، فاذا نظر الناظر وعرف
 وجه النقل المتواتر في هذا الباب وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه ، وما
 ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدي ، وان ما أتى به قد عرف المعجز عنه
 بكل حال

قيل : اما احتيج الى التحدي لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان ، لان
 المعجزة اذا ظهرت فانما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه ، ولا تظهر
 على مدعى لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله ، فاذا كان يظهر وجه الاعجاز فيها
 للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي ، لأنه يزول بذلك الشبهة عن الكل
 وينكشف للجميع أن المعجز واقع عن المعارضة ، وإلا فإن مقتضى ما قدمناه
 من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب ويتقن مصارف الكلام
 - وكان كاملاً في فصاحته جامعاً للمعرفة بوجوه الصناعة - لو أنه احتج عليه
 بالقرآن وقيل له ان الدلالة على النبوة والآية على الرسالة ما أتوه عليك منه
 لكان ذلك بلاغا في إيجاب الحجة ، وتاماً في الزامه فرض المصير اليه . ومما
 يؤكد هذا أن النبي ﷺ قد دعا الآحاد الى الاسلام محتجاً عليهم بالقرآن
 - لانا نعلم انه لم يلزمهم تصديقه تقليداً ، ونعلم أن السابقين الأولين الى الاسلام
 لم يقلدوه وانما دخلوا على بصيرة - ولم نعلمه قل لهم ارجعوا الى جميع الفصحاه
 فإن عجزوا عن الاتيان بمثله فقد ثبتت حجتى ، بل لما رأهم يعلمون اعجازهم
 ألزمهم حكمه فقبلوه وتابوا الحق وبادروا اليه مستسلمين ولم يشكوا في صدقه
 ولم يرتابوا في وجه دلالاته . فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان الى
 القبول منه أسبق ، ومن اشتبه عليه وجه الاعجاز واشتباه عليه بعض شروط

المعجزات وأدلة النبوات كان ابطلاً الى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه مواده . وهذا فصل يجب أن يتمم القول فيه بعد فليس هذا بموضع له

ويبين ما قلناه أن هذه الآية علم يلزم السكك قبوله والالتقاد له ، وقد علمنا تفاوت الناس في ادراكه ومعرفة وجه دلالة ، لان الاعجمي لا يعلم انه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج في معرفة ذلك الى أمور لا يحتاج اليها من كان من أهل صنعة الفصاحة ، فاذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة ، فربما حل في ذلك محل الأعجمي في أن لا توجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه ، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه . فاما من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها اظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف اعجازه ، وان لم نقل ذلك أدنى هذا القول الى أن يقال ان النبي ﷺ لم يعرف اعجاز القرآن حين أوحى اليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه ، وهذا خطأ من القول . فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى اليه القرآن عرف كونه معجزاً ، وبأن (١) قيل له انه دلالة وعلم على نبوتك أنه كذلك ، من قبل ان يقرأه على غيره أو يتحدّى

(١) كذا في المطبوعة ، وفي المخطوطة « كونه معجز أو بأن » وقيل كلمة « بأن » يابس يتسع لكلمة واحدة

إليه سواه . ولذلك قلنا ان المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاسيح متى سمع القرآن عرف انه معجز ، لانه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه فيعلم ان عجز غيره كمجزه هو ، وان كان يحتاج بعد هذا الى استدلال آخر على انه علم على نبوة ودلالة على رسالة بأن يقال له ان هذه آية لنبية وانما ظهرت عليه وادعاهها معجزة له وبرهاناً على صدقه

فان قيل فان من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه فكذلك البليغ ، وان علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره

قيل : هو مع مستقر العادة . وان عجز عن قول الشعر وعلم انه مفحم فانه يعلم ان الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم . ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره لانه كهو لانه ^(١) يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء ، اذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز او يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه ، فاذا لم يكن لذلك مثل في العادة - وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب ووجد القرآن مبايناً لها - علم خروجه عن العادة وجرى مجرى ما يعلم ان ^(٢) اخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لا يجوزه من نفسه وكذلك لا يجوز وقوعه من غيره الا على وجه تقض العادة ، بل يرى وقوعه موقع المعجزة . وهذا وان كان يفارق فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه ، وهو انه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه ، فكونه ناقضاً للعادة من غير تأمل

(١) كذا بالنسخين ، والا توفى أن تكون « ولأنه »

(٢) أظن الصواب ما يعلم من أن

شديد ولا نظير بعيد . فإن النظر في معرفة اعجاز القرآن يحتاج الى تأمل ويفتقر الى مراعاة مقدمات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع . فكل واحد منها يؤول الى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدمناه . ومما يبين [ذلك] ما قلناه من ان البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف اعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه اذا تحدى اليه وعجز عن مثله وان لم ينتظر وقوع التحدي في غيره . وأما الذي يصنع ذلك الغير وهو ما روى في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي ﷺ في معني^(١) حليف له أراد أن يفاديه فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة (٥٢ : ١ - ٢) « والطور وكتاب مسطور » في صلاة الفجر قال فلما انتهى الى قوله (٥٢ : ٧ - ٨) « ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع » قال خشيت أن يدركني العذاب . فأسلم^(٢) وفي حديث آخر أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة طه فأسلم . وقد روى أن قوله عز وجل في أول حم السجدة الى قوله (٤١ : ٤) « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » نزلت في شيبه وعتبة ابني ربيعة وأبي سفيان بن حرب وأبي جهل . وذكر أنهم بعثواهم وغيرهم من وجوه قريش بعثة بن ربيعة الى النبي ﷺ ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا أن يأثمهم بما عنده فقرأ النبي ﷺ سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى الى قوله (٤١ : ١٣) « فان أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فوثب مخافة العذاب ، فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد .

(١) المعنى : الأسير

(٢) في البخاري في آخر باب قصة غزوة بدر عن محمد بن جبير عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المنرب بالطور وذلك أول ما وفر الإيمان في قلبي . وذكر غيره في كتاب التفسير سورة الطور

فقال له عثمان بن مظعون : لتعلموا أنه من عند الله ، اذ لم يهتد لجوابه
وأبين من ذلك قول الله عز وجل (٩ : ٦) « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
استجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » فجعل سماعه حجة
عليه بنفسه فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه
فإن قيل : لو كان على ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا
في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في اسلامهم عند سماعه
قيل : لا يجب ذلك ، لأن صوارفهم كانت كثيرة ، منها أنهم كانوا
يشكون : منهم من يشك في اثبات الصانع ، وفيهم من يشك في التوحيد ،
وفيهم من يشك في النبوة . ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء الى رسول
الله ﷺ ليسلم عام الفتح قال له النبي عليه السلام : أما آن لك أن تشهد أن
لا إله إلا الله ؟ قل : بلى . فشهد . قل : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ قل
أما هذه في النفس منها شيء . فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم
متباينة : فمنهم من قلت شبهه وتأمل الحجة حق تأملها ولم يستكبر فأسلم ، ومنهم
من كثرت شبهه وأعرض عن تأمل الحجة حق تأملها أولم يكن في البلاغة على
حدود النهاية فتناول عليه الزمان الى أن نظر واستبصر وراعى واعتبر ،
 واحتاج الى أن يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله فلذلك وقف أمره ، ولو
كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة لتوافوا
الى القبول جملة واحدة
فإن قيل : فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه اعجاز القرآن ؟ وما الوجه
الذي يتطرق به اليه والمنهاج الذي يسلكه حتى يقف به على جلية الأمر فيه ؟
قيل : هذا سبيله أن يفرد له فصل
فإن قيل : فلم زعمتم أن البلاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على

صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وانما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف أو يمنعه من الاتيان بمثله ضرباً من المنع أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من ايجاب الحجة ، لان من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة

فالجواب أنه لو صح ذلك صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار ، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة . ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن . على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهاط من رتبة البلاغة فيه ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه أبلغ في الاعجوبة اذا صرفوا عن الاتيان بمثله ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغنى عن انزاله على النظم البديع واخرجه في المعرض الفصيح العجيب . على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا اليه ولم تلزمهم حجته ، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرف ظاهراً البطلان

وفيه معنى آخر : وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن اذا سمعوا كلاماً مطمعا لم يخف عليهم ولم يشبهه لديهم ، ومن كان متناهما في فصاحته لم يجوز أن يطعم في مثل هذا القرآن بحال . فان قل صاحب السؤال انه قد يطعم في ذلك ، قيل له أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد

عليه في الفصاحة ولا يتحاشاه ، وبحسب أن ما ألفه في الجزء والطفرة ^(١) هو أبداع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنى ، ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه وبحسبه ظان من أمره ، والمرجوع في هذا الى جملة الفصحاء دون الآحاد . ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ وتميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بين الغلط ، وإن هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله في محكم كتابه (٧٤ : ١٨ - ٢٥) « إنه فكروا قدر ، قتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر » فهم يعبرون عن دعواهم - أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله - بأن ذلك من قول البشر ، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل الى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته

ومما يبطل ما ذكره من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها الصرفة - لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه . وليس هذا بأعجب مما ذهب اليه فريق منهم أن السكل قدرون على الاتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا اليه به . ولا بأعجب من قول فريق منهم : أنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وأنه يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد

فإن قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالنوراة والانجيل والصحف ؟ قيل : ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف ، وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الاخبار بالغيوب . وإنما لم

(١) في النسخين « والطفرة » بالجمعة

يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأننا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن . ولمعنى آخر ، وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز ، ولكنه يتقارب . وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب . ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة [العربية] ، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تناول المعاني الكثيرة على ما تناوله العربية ، وكذلك التصرف في الاستعارات والاشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التي يجيء تفصيلها بعد هذا

ويشهد لذلك من القرآن أن الله تعالى وصفه بأنه « بلسان عربي مبين » وكرر ذلك في مواضع كثيرة ، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجمياً ، فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته ، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة . وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله أنه عربي مبين أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم ، ولا يحتاجون في تفسيره إلى من سواهم ، فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضاً كما أفاد بظاهره ما قدمناه . وبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية ، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية . ومعنى آخر ، وهو أننا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم ، ولا ادعى لهم المسلمون ، فلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن . وبين هذا أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية . وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة ، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية -

وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية . فان قيل : فان المجوس تزعم أن كتاب زرادشت وكتاب ماني معجزان . قيل : الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق النيرانجات وضروب من الشعوذة ليس يقع فيها اعجاز . ويزعمون أن في الكتاب الحكيم ، وهي حكم منقولة متداولة على الألسن لا تختص بها أمة دون أمة ، وان كان بعضهم أكثر اهتماما بها وتحصيلا لها وجعلها أبوابها . وقد ادعى قوم أن ابن المنفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرّة البتية . وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى ، والآخر في شيء من الديانات ، وقد تهوّن فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذي يبناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجهر في الحكمة فأني صنع له في ذلك ، وأي فضيلة حازها فيما جاء به ؟ وبعد فليس يوجد له كتاب يدعي مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشغل بذلك مدة ثم مرق ما جعم ، واستحيا لنفسه من اظهاره . فان كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد ، ولا يمتنع أن يشبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده ويتبين له أمره وينكشف له عجزه . ولو كان بقي على اشتباه الحل عليه لم يخف علينا موضع غفلته ولم يشبهه لدينا وجه شبهته ، ومتى أمكن أن تدعي الفرس في شيء من كتبهم أنه معجز في حسن تأليفه وعجيب نظمه ؟



فصل

﴿ في جملة وجوه اعجاز القرآن ﴾

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الاعجاز :
 أحدها يتضمن الاخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل
 لهم اليه . فن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على
 الأديان بقوله عز وجل (٩ : ٣٣) « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
 ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ففعل ذلك . وكان أبو بكر
 الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من اظهار دينه
 لينشقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل
 كذلك في أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه ، فكان سعد بن أبي وقاص
 رحمه الله وغيره من امراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لاصحابه ويحرضهم
 به ويوتق لهم ، وكانوا يلقون الظفر في مؤججاتهم ، حتى فتح الى آخر أيام عمر
 رضي الله عنه الى بلخ وبلاد الهند ، وفتح في أيامه مرو والشاهجان ومرو الروذ
 ومنعهم من العبور ببحيرون ، وكذلك فتح في أيامه فارس الى اصطخر وكرمان
 ومكران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان بملكه
 ملوك الفرس بين البحرين من الفرات الى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس
 فلم يعد الى اليوم ولن يعود أبداً ان شاء الله تعالى ^(١) ثم الى حدود إزمينية والى
 باب الابواب . وفتح أيضاً ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر وأزال
 ملك قيصر عنها وذلك من الفرات الى بحر مصر وهو ملك قيصر . وغزت
 الخيول في أيامه الى عمورية ، فأخذ الضواحي كلها ولم يبق دونها الا ما حجز

(١) أي ان يعود من سلطان الاسلام الى سلطان الجوسية

دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة . وقال الله عز وجل (١٢ : ٣) « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » فصدق فيه ؛ وقال في أهل بدر (٧ : ٨) « وإذ يبعثكم الله احدي الطائفتين أنها لكم » ووفى لهم بما وعد . وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جداً وانما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل

والوجه الثاني أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ (١) ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبيائهم وسيرهم ، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمة الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه ، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتهاء خلقه وما صار اليه أمره من الخروج من الجنة ، ثم جملاً من أمر ولده وأحواله وقبته ، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى اليه أمره ، وكذلك أمر ابراهيم عليه السلام ، الى ذكر سائر الانبياء المذكورين في القرآن والملك والفراعة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم . ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن تعلم ، واذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحمة الاخبار ولا متردداً الى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحي ولذلك قال عز وجل (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا نخطه

(١) فهم بعض من لا يحسن الفهم من هذا التعبير أنه كان صلى الله عليه وسلم يقرأ غير أنه لا يحسن القراءة . وفهم من قول الطبري في صرة الحديثية عند كتابة الكتاب ج ٢ ص ٨٠ « وليس يحسن يكتب » أنه كان يكتب ولكن لا يحسن ، وهذا الفهم خطأ نشأ من عدم فهم أساليب العربية وآداب الكتابة .

بهمينك إذا لارتاب المبطلون » وقال (٦ : ١٠٥) « وكذلك نُصِرَف الآيات
وليَقُولُوا دَرَسْتَ » وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشغل بملاسة
أهل صنعة لم يخف على الناس أمره ولم يختلف عندهم مذهبه ، وقد كان يعرف
فيهم من يحسن هذا العلم وإن كان نادراً ، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه
للتعليم ، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها ، فلو كانت منهم لم
يخف أمره .

والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناوٍ في البلاغة إلى الحد
الذي يُعَلَّم عجز الخلق عنه ؛ والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن
نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها

فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المنضمن للاعجاز وجوه :

منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوه
واختلاف مذاهبه خارج عن المألوف من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من
ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام
المعتاد ، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى
أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى
ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم
إلى ما يرسل أرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه
بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام
الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه
ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع
ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه
كلام مسجع ، ومنهم من يدعي أن فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم في ذكر

بعد هذا الموضع . فهذا اذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم
وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة وأنه معجز ، وهذه خصوصية ^(١)
ترجع الى جملة القرآن وتعيّن حاصل في جميعه ^(٢)

ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف
البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة
والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر . وانما تنسب الى حكيمهم
كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد
هذا من الاختلال ، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويقع فيها ما نبديه
من التمثل والنكاف والنجوز والتعسف . وقد حصل القرآن على كثير من
وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل (٣٩ : ٢٣)
« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون
ربهم ثم تليّن جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » (٤ : ٨٢) « ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . فأخبر أن كلام الآدمي ان امتد وقم
فيه التفاوت وبأن عليه الاختلال ، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي
بدأنا بذكره ، فتأمله تعرف الفضل

وفي ذلك معنى ثالث ^(٣) ، وهو أن عجب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت
ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص
ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وانذار ووعيد وتبشير
وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة ، وغير ذلك

(١) يفتح الحاء وضما قالوا والفتح أفصح كقولهم لمن بين الأصوصية يفتح اللام

(٢) أي من وجوه الاعجاز

(٣) هذا هو الوجه الثالث من وجوه الاعجاز

من الوجوه التي يشتمل عليها . ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور

فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التكريظ دون التأنيب ، ومنهم من يجود في التأنيب دون التكريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الحمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بأمريء القيس اذا ركب ، والناطقة اذا رهب ، ويزهيرا اذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الاحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره ، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لانه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ، ولا شك في تميزهم في مذهب النظم . فاذا كان الاختلال بينا في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه استغنينا^(١) عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد في الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مما تكلفه أو عمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا عجيبا ، ومنهم من يوجد بضد ذلك

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قد منا ذكرها على حد واحد ، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد

(١) كان في الاصل « واستغنينا »

فأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا
الاعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس
عند إعادة ذكر القصة الواحدة . فرأينا غير مختلف ولا متفاوت بل هو على
نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لان الذي
يقدرون عليه قد يثنا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تبين الوجوه
واختلاف الاسباب التي يتضمن

ومعنى رابع وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل
والعلو والنزول والتقريب والتباعد وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند
النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، ألا ترى ان كثيراً من الشعراء
قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ،
حتى ان أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير الباحثين مع جودة نظمهم وحسن
وصفهم في الخروج من النسيب الى المديح ، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي
فيه شيء وإنما اتفق له - في مواضع معدودة - خروج برضى وتنقل يستحسن .
وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء الى شيء والتحول من باب
الى باب . ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن - على
اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف
كلواً تلتف والمتباين كالمقتناسب والمتنافر في الافراد الى حد الأحاد ، وهذا
أمر عجيب قبيح به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد
العادة ويتجاوز العرف

ومعنى خامس وهو أن نظم القرآن وقع موقفاً في البلاغة يخرج عن عادة
كلام الانس والجن ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كمعجزنا ويقصرون عن كونه
كمقصورنا ، وقد قل الله عز وجل ١٧ : ٨٨ قل لن اجتمعت الانس والجن

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .
 فإن قيل : هذه دعوى منكم وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن
 مثله ، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الاتيان بمثله وإن كنا عاجزين ، كما
 أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة وأسباب غامضة دقيقة لا تقدر نحن عليها ،
 ولا سبيل لنا للطفها اليها ، وإذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعينم سبيل .
 قيل : قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل . وقد يمكن أن يقال إن هذا
 الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن وما يروون لهم من
 الشعر ويحكون عنهم من الكلام ، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول
 عنهم ، والقدر الذي نقلوه قد تأملناه فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة
 الانس ولعله يقصر عنها ، ولا يمنع أن يسمع الناس كلامهم ويقع بينهم وبينهم
 محاورات في عهد الانبياء صلوات الله عليهم ، وذلك الزمان مما لا يمنع فيه
 وجود ما ينقض العادات . على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيлян
 ولهم أشعار محفوظة مروية في دواوينهم . قل تأبط شرا (١) :

وأدهم قد جئت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيلا (٢)

(١) أنشد ابن بري البيت الاول لحاجز المروى عن غير أن المحفوظ أنها لتأبط شرا
 ثابت بن جابر من بني فهم وهو جاهلي :

تقول سليبي	لجاراتها	أرى ثابتا قد غدا مرعلا
لها الويل ما وجدت ثابتا	ألف البدين ولا زملا	
ولا رعش الساق عند الجرا	إذا بادر الخيلة الخيلا	
يفوت الجياد بتقريبه	ويكسو هواذها القسطلا	

(٢) وأدهم يريد القيل . نص اصحاب كتب اللغة على . في اجتاب القميس لبسه ودخله
 ولم يذكروا لفظ جبت القميس أو القلام أي لبسته ودخلت فيه وهو هنا بهذا المعنى والخيلا
 قميس لا كخي له

الى أن حدا الصبحُ أثناءه ومزق جلبابه الأثيلا (١)
على شبنم نار تنورثها فبت لها مدبرا مقبلا (٢)
فأصبحت والغول لى جارة فياجارتا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعمها ، فالتوت بوجه تهول واستغولا (٣)
فمن سال أين ثوت جارتي فان لها باللوى منزلا
وكننت اذا ما هممت اعتره ت وأحر اذا قلت أن أفعل
وقل آخر:

عشوا ناري فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلما
فتمت الى الطعام فقال منهم زعيم يحسد الانس الطعاما
ويذكرون لامري القيس قصيدة مع عمرو الجني وأشعارا لها كرها
ذكرها لطلوها . وقال عبيد بن أيوب (٤) :
فله در الغول أي رفيقة لصاحب فقر خائف يتقفر (٥)

(١) حدا : ساق . وأثناء جمع ثى على وزن حل من قولك مفي ثى من الليل أي ساعة
ورقت . وليل أليل شديد الظلمة
(٢) الشيم للنظر الى النار وتنورت النار من بعيد تبهرتها
(٣) البضع جمع بضعة كشمرة وشمرة وهي القطعة من اللحم . وتهول صار هولة من الهول
يفزع منه . وتغولت النول واستغولت تلوت وتخبكت . ويروى مجز فلما البيت « فكان من
الرأى أن تغولا » ويروى بده :

عطاية أرض لها حلتا ن من ورق الطلع لم تنزلا

فمن كان يسأل عن جارتي ... الخ

(٤) عبيد بن أيوب بن شرار وكنيته أبو المطراد أحد بني المنبر بن عمرو بن نعيم . وكان
لما فاتسكا يقطع الطريق هو والاحير السعدي سعد بن زيد مناة بن نعيم ما بين البصرة
والحجاز وكثيرا ما يذكرون النول في شعره انظر الحيوان الجاحظ ج ٥ من ٤٢ و ج ٦ من
٤٨ و ٥٠ و ٥١ . وفي من ٧٣ منه ثلاثة أبيات على السنين لم يسبها وهي له
(٥) كانت في الاصل « متفر » على الاقواء . والرواية في الخامسة البصرية وفي الحيوان
الجاحظ « يتفر » والنصيدة كلها مرفوعة الروي

أرئت بلحن بعدلحن وأوقدت حوالي نيرانا تبوخ وتزهر
وقل ذو الرمة بعد قوله :

قد أَعْشِفَ النَّازِحَ المجهول معشِفُهُ في ظل أخضر يدعوهامه اليوم^(١)
للجن بالليل في حافاتها زجل^(٢) كما تناوح يوم الريح عيشوم^(٣)
دَوِيَّةٌ ودُجَى ليل كأنهما يَم تَراطنُ في حافاته الروم^(٤)
وقل أيضاً :

وكم عرست بعد السرى من معرّس به من كلام الجن أصوات سامر^(٥)
وقل :

ورمل عريف الجن في عَقَبَاتِهِ هَزِيْزٌ كَتَضْرَابِ المَغْنَمِ بالبطل^(٥)

وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ويحكمون عنهم ، وذلك
القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب ، صبح ما وصف عندهم من عجزهم
عنه كعجز الأنس . وبين ذلك من القرآن أن الله تعالى حكى عن الجن
ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال (٤٦ : ٢٩) « واذ صرفنا اليك نفرًا من الجن »

(١) المسف ركوبك الامر بلا تدبر ولا روية . والنازح المجهول يريد قلة . في ظل
أخضر : يريد الليل . وأخضر أسود . وبروح في ظل أعصف وليل أعصف ألبس ظلامه .
والهام أني اليوم واليوم خاص بالذكور على الاكثر ودعاء اليوم هامه معروف في شعر العرب ،
فن ذلك قول يزيد بن مفرغ الحميري

وشريت برداً ليقني من بعد برد كنت هامه
هتافة تدعو صدى بين المشقر والجمامه

واستشهد صاحب اللسان بهذا البيت في ترجمة (خضر) على قولهم أنا معه في أمر أخضر
أي جديد غرض . وبأن مما شرحنا به البيت أنه لا يصح هذا الاستشهاد

(٢) زجل جلبة . تناوح تضطرب وتهتز . والبشوم قصب دقاق طوال كلال تتخذ منه
الحصر المصنفة الرقيقة

(٣) الدوبة المنازة . والدجى جمع دجبة على وزن جملة وهي الظلمة

(٤) كانت في الاصل « بعد النوى من معرّس لها » وصححناه من نسخة الديوان
بالمخطوطة بدار الكتب المصرية . والسامر النوم يسرون

(٥) هزيف الجن صوتها . والمعقة جبل صلب يتقرض الطريق فيأخذ فيه . وهزير بدوي دوي

يسمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ»
الى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه . فإذا ثبت أنه وصف كلامهم ، ووافق ما يعتقدونه
من نقل خطابهم ، صح أن يوصف الشيء المؤلف بأنه ينحط عن درجة القرآن
في الفصاحة

وهذان الجوابان أسدّ عندني من جواب بعض المشككين عنه بأن عجز
الانس عن القرآن يثبت له حكم الاعجاز فلا يعتبر غيره . ألا ترى أنه لو
عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه فقال لنا قائل فدأوا على أن الملائكة
تعجز عن الاتيان بمثله لم يكن لنا في الجواب غير هذه الطريقة التي قد بينها .
وانما ضمنا هذا الجواب لان الذي حكى وذكر عجز الجن والانس عن الاتيان
بمثله ، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه كما علمنا عجز الانس عنه ، ولو كان وصف
عجز الملائكة عنه لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقه

فان قيل : أنتم قد انتهيتم الى ذكر الاعجاز في التفاصيل وهذا الفصل انما
يدل على الاعجاز في الجملة . قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة فانه يدل على
التفصيل أيضاً ، فصح أن يلحق هذا القبيل كما كان يصح أن يلحق بباب الجمل
ومعنى سادس وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب ، من البسط والاقتصار ،
والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والنحو والتحقيق ، ونحو ذلك
من الوجوه التي توجد في كلامهم ، موجود في القرآن . وكل ذلك مما يتجاوز
حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والابداع والبلاغة . وقد ضمنا بيان
ذلك بعد لان الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل

ومعنى سابع وهو أن المعاني التي تنضم في أصل وضع الشريعة والاحكام
والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الالفاظ البديعة
وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، وينع ذلك

أنه قد علم أن تخير الالفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والاسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخير الالفاظ لمعان مبتكرة ، وأسيبب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان اللفظ وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والامر المنتظر المتصور ، ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه ، بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم

ومعنى ثامن وهو أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر ، فنأخذ الامحاح وتشوف اليه النفوس ، وبرى وجه روثه باديا غامرا سائر ما يقرب به ، كالدرّة التي ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد . وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جبهة ، وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه بروثه وجماله ، واعتراضه في جنسه ومائه ، وهذا الفصل أيضا مما يحتاج فيه الى تفصيل وشرح ونص لينحقق ما ادعينا منه ، ولولا هذه الوجوه التي ينشأ عنها لم يتجبر فيه أهل الفصاحة ، ولكانوا يفرعون الى العمل للمقابلة ، والتصنع للمعارضة ، وكانوا ينظرون في أمرهم ، ويراجعون أنفسهم ، أو كان يراجع بعضهم بعضا في معارضته ويتوقفون لها . فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، علم ان أهل المعرفة منهم بالصنعة انما عدلوا عن هذه الامور لعلمهم بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم عنه . ولا يمنع ان يلتبس - على من لم يكن بارعا فيهم ولا متقدما في الفصاحة منهم - هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى يعرف حال عجز غيره . الا

أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم ساءوا ولم يشتغلوا بذلك ، تحققتا بظهور
العجز وتهيئته . وأما قوله تعالى حكاية عنهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا
مثل هذا » فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم ، وقد
يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم . ولذلك
أورده الله مورد تقريرهم ، لأنه لو كانوا على ما رصفوا به أنفسهم لكانوا
يتجاوزون الوعد إلى الانجاز ، والضمان إلى الوفاء ، فلما لم يستعملوا ذلك - مع
استمرار التحدي وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه -
علم عجزهم ، اذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط . ومعلوم
من حالهم وحيتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والموام والحيات وفي
وصف الازمة والأنساع والامور التي لا يؤبه لها ولا يحتاج إليها ، ويتنافسون
في ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح ، فكيف يجوز أن تمكنهم
معارضته في هذه المعاني الفسيحة ، والعبارات الفصيحة ، مع تضمن المعارضة
لكذبيته ، والذب عن أديانهم القديمة ، وإخراجهم أنفسهم من نسفيه رأيهم ،
وإضليله إياهم ، والتخلص من مذارعته ، ثم من محاربتة ومقارعتة ، ثم لا يفعلون
شيئاً من ذلك ، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل ، ويعملونها بالباطيل
ومعنى تاسع وهو أن الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون
حرفاً ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ،
وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف
الجملة وهو أربعة عشر حرفاً ، ليدل بالمدكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا
الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم . والذي تنقسم إليه
هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهاً أقسام
نحن ذاكروها

فمن ذلك أنهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة . فالمهموسة منها عشرة . وهي : (الحاء) و (الهاء) و (الخاء) و (الكاف) و (الشين) و (الزايم) و (الفاء) و (الناء) و (الصاد) و (السين) ، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة . وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان . و (المجهور) معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، و (المهموس) كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس . وذلك مما يحتاج الى معرفته لتبني عليه أصول العربية

وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون انها على ضربين : أحدها حروف الخلق وهي ستة أحرف (العين) و (الحاء) و (الهمة) و (الهاء) و (الخاء) و (الغين) والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف التي تشمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور ، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الخلق

وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين : أحدهما حروف غير شديدة ، والى الحروف الشديدة وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه ، وهي (الهمة) و (القاف) و (الكاف) و (الجيم) و (الظاء) و (الدال) و (الناء) و (الباء) . وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بنى عليها تلك السور

ومن ذلك الحروف المطبقة ، وهي أربعة أحرف وما سواها منقطة . فالمطبقة (الطاء) و (الظاء) و (الصاد) و (الضاد) وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور

واذا كان القوم - الذين قسموا في الحروف هذه الاقسام لاغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ - رأوا ^(١) مبانى اللسان على هذه الجهة ، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التنصيف الذي وصفنا ، دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه - بعد العهد الطويل - لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل ، لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب ، وإن كان إنما نبهوا ^(٢) على ما بنى عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم شيء ، وإنما التأنير لمن وضع أصل اللسان . فذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان ، فإن كان أصل اللغة توقيفاً فالامر في ذلك أبين ، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً ، لأنه لا يصح أن تجتمع همهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى . وكل ذلك يوجب اثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الاعجاز من وجه ، وقد يمكن ان تعاد فاتحة كل سورة لفائدة نخصها في الفظم اذا كانت حروفاً كنحو (آلم) ، لأن الالف المبدوء بها هي أقصاها مطلقاً ، واللام متوسطة ، والميم متطرفة لانها تأخذ في الشقة ، فنبه بذلك على غيرها من الحروف ، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم بما يتعارفون من الحروف التي تتردد بين هذين الطرفين . ويشبه ان يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الالف لأن الالف قد تلغى وقد تنوع الهمزة وهي موقعا واحداً

ومعنى عاشر وهو أنه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشي المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريباً الى الافهام يبادر معناه لفظه الى

(١) في الأصل (ورأوا) غير ان سياق الكلام يقتضي حذف الواو فيكون « واذا كان القوم رأوا مبانى اللسان على هذه الجهة ... دل ذلك على أن »
(٢) في المخطوطة « شبهوا »

القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس . وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول ، غير مطمع مع قر به في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به . فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبذل والقول المسفسف ، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمتع أو يوضع فيه الاعجاز . ولكن لو وضع في وحشي مستكره ، أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف ، لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع . ولكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله وجعله في ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك اعجازهم فيه . وقد علمت أن كلام فصحاءهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر ، أو وحشي مستكره ، ومعان مستبعدة . ثم عدوهم الى كلام مبذل وضع لا يوجد دونه في الرتبة ، ثم نحولهم الى كلام معتدل بين الامرين متصرف بين المنزلتين . فمن شاء ان ينحقق هذا نظر في قصيدة امريء القيس :

• قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل •

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف اليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة ، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها على وجه يؤخذ باليد ، ويتناول من كشب ، ويتصور في النفس كتصور الاشكال ، ليبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن

واعلم ان من قال من أصحابنا ان الاحكام معللة بلل موافقة مقتضى العقل ، جعل هذا وجها من وجوه الاعجاز ، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنحو ما يعملون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها ، ولهم في كثير من تلك العمل طرق قريبة ووجوه تستحسن . وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ، ولكن الأصل الذي يبنون عليه ، عندنا غير مستقيم . وفي ذلك كلام يأتي في

كتابنا في الاصول

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والافراد ، فانا جمعنا بين أمور وذكرنا المزية المتعلقة بها وكل واحد من تلك الامور مما قد يمكن اعتماده في اظهار الاعجاز فيه

فان قيل : فهل نزعون أنه معجز لانه حكاية لكلام القديم سبحانه ، أو لانه عبارة عنه ، أو لانه قديم في نفسه ؟ قيل : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على الفاسد ؟ ولا نقول أيضاً ان وجه الاعجاز في نظم القرآن انه حكاية عن الكلام القديم ، لانه لو كان كذلك لسكانت التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات في النظم والتأليف ، وقد بينا ان اعجازها في غير ذلك ، وكذلك كان يجب ان تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردا ، وقد ثبت خلاف ذلك



فصل

﴿ في شرح ما بيننا من وجوه اعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذي بدأنا به ذكره ^(١) من الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله ، فهو كقوله تعالى (٤٨ : ١٦) « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » فأغزاهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى قتال العرب والفرس والروم ، وكقوله (٣٠ : ١ - ٤) « أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ » وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك وصدق الله وعده . وكقوله في قصة أهل بدر (٥٤ : ٤٥) « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » وكقوله (٤٨ : ٢٧) « لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُفَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُخْلَفِينَ رِؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » وكقوله (٨ : ٧) « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » في قصة أهل بدر وكقوله (٢٤ : ٥٥) « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك . وقال في قصة المنتخلفين عنه في غزوته (٨٣ : ٩) « لَنْ نَخْرُجَا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » فحق ذلك كله وصدق ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد . وكقوله (٩ : ٣٣) « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » وكقوله (٣ : ٦٠) « قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » فامتنعوا من المباهلة ولو

أجابوا اليها اضطربت عليهم الأودية نارا على ما ذكر في الخبر . وكنهه
(٢ : ٩٤ - ٩٥) « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من
دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت
أيديهم » ولو تمنوه لوقع بهم . فهذا وما أشبهه فصل

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه ^(١) من اخباره عن قصص الاولين وسير
المنقذين ، فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الاخبار ولم يشتغل بدرس
الآثار . وقد حكى في القرآن تلك الامور حكاية من شهدها وحضرها ، ولذلك
قال الله تعالى (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه
بيمينك إذا لارتاب المبطلون » وقال (٢٨ : ٤٤) « وما كنت بجانب الغربي
اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين » وقال (٢٨ : ٤٦) « وما
كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من
نذير من قبلك » فبين وجه دلالة من اخباره بهذه الامور الغائبة السالفة
وقال (١١ : ٤٩) « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها
أنت ولا قومك من قبل هذا » الآية

فأما الكلام في الوجه الثالث وهو الذي بيناه ^(٢) من الاعجاز الواقع في
النظم والتأليف والرصف ، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها : انا قلنا انه
نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ، ومباين لاساليب خطابهم .
ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا
السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى ، لان قوما من كفار قريش ادعوا انه
شعر ، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعرا ، ومن أهل الملة من يقول انه كلام
مسجع الا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أصحاجهم ، ومنهم من يدعي انه
كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب

فصل

﴿ في نفي الشعر من القرآن ﴾

قد علمنا أن الله تعالى نفي الشعر من القرآن ومن النبي ﷺ فقال (٣٦ : ٦٩) « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » وقل في ذم الشعراء (٢٢٤ : ٢٢٥) « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات فقال (٦٩ : ٤١) « وما هو بقول شاعر » وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار من قولهم إنه شاعر ، وإن هذا شعر ، لا بد من أن يكون محولا على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعراب المحصورة المألوفة ، أو يكون محولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم أيام بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة ، أو يكون محولا على أنه أطلق عن بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر ، وهذا أبعد الاحتمالات فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا ، وذلك أن الشاعر يظن لما لا يظن له غيره ، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على مادونه - في رأيهم وعندهم - أقدر ، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب . فإن زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعرا كثيرا فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام أو أبيات تامة ومنه ما يزعمون أنه مصراع كقول القائل :

قد قلت لما حاولوا سلوتي (هيهات هيهات لما توعدون) (٢٣ : ٣٦)

ومما يزعمون أنه بيت قوله (٣٤ : ١٣) . « ورجقان كالجواب وقبور »

راسيات « قالوا هو من الرمل من البحر الذي قيل فيه :
 ساكنُ الريح نطو فُ المزنِ مُنحلُّ العزالي (١)
 وكقوله (١٨ : ٣٥) « من تزكى فأما يتزكى لنفسه » كقول الشاعر من
 بحر الخفيف :

كل يوم بشمسه وغدٌ مثل أمسه
 وكقوله عز وجل (٦٥ : ٣-٢) « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه
 من حيث لا يحتسب » قالوا هو من المنقارب. وكقوله (٧٦ : ١٤) « ودانية
 عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلا » ويشبعون حركة الميم فيزعمون انه من
 الرجز. وذكر عن أبي نواس انه ضمن ذلك شعرا وهو قوله :

وفنية في مجلس وجوههم ربحانهم قد عدموا التنقيلا
 دانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلا
 وقوله عز وجل (٩ : ١٤) « ويخزهم وينصركم عاينهم ويشف صدور قوم
 مؤمنين » زعموا انه من الوافر كقول الشاعر (٢) :

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جاتها عصي (٣)
 وكقوله عز وجل (١٠٧ : ١-٢) « أرايت الذي يكذب بالدين فذلك
 الذي يدعُ اليتيم » ضمنه أبو نواس في شعره ففصل وقال « فذاك الذي »
 وشعره :

وقرا معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيا

- (١) بصف سحابة . نطوف : تطور ، تطر حتى الصباح . والنزال : جمع عزلاء وهو
 مصب الماء من الراوية والغربة في اسفلها
 (٢) امرؤ النيس الكندي
 (٣) غزار : غزيرة البانها . وجة ابل مسانها جمع جليل مثل صبي وصبية . ورواية صدر
 البيت المشهورة « ألا ان لم تكن ابل فزى »

أرأيت الذي يكذب بالدين ن فذاك الذي يدع البنيان
وهذا من الخفيف كتول الشاعر :

وفؤادي كعهده بسليمي بهوى لم يحل ولم يتغير
وكما ضمنه في شعره من قوله (٤٣ : ١٣) :

سبحان (من) سخر هذا لنا (حقاً) وما كنا له مقرنين

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر وكما يقولونه في قوله عز وجل (١٠٠ : ١-٢)
« والعاديات ضبحاً فلموريات قدحا » ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله (٥١ :
٣-١) « والذاريات ذرواً فالخاملات قرأاً فلجاريات يسراً » وهو عندهم
شعر من بحر البسيط

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعواها من وجوه : أولها ، ان الفصحاء
منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعراً ولم يروه خارجاً عن
أساليب كلامهم لبادروا الى معارضته ، لان الشعر مسخر لهم مسهل عليهم لهم
فيه ما قد علمت من التصرف العجيب والاقتدار اللطيف ، فلما لم نرم اشتغلوا
بذلك ولا عولوا عليه علم انهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة
والمرمدون في هذا الشأن (١) ، وان استدراك من يجيء الآن على فصحاء
قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغاتهم وخطبتهم ، وزعمه انه قد
ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجتهم
الى الطعن في القرآن والغرض منه والتوصل الى تكذيبه بكل ماقدروا عليه ،
ان (٢) يجوز أن يخفى على أولئك وان يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل
حقيق . اذا كان كذلك علم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد (٣)

(١) أرمم الرجل جهده وانتفر

(٢) في الاصل (فان) وبها لا يسقيم للمق ولا الكلام ، ونقدم خبر « وان استدراك »

(٣) « شديد في الاصل »

وهو انهم قالوا : ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا ، وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام . وقالوا أيضا : ان ما كان على وزن بيتين الا انه يختلف رويهما وقافيتهما فليس شعر . ثم منهم من قال : ان الرجز ليس بشعر أصلا لاسيما اذا كان مشطورا أو منهوكا ، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الاجزاء . وعلى هذا يسقط السؤال . ثم يقولون : ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يعتمد وبذلك ، ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر ، لانه لو صح ان يسمى [شاعرا] كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتنزه بوزن الشعر ، أو تنتظم انتظام بعض الأعارض ، كان الناس كلهم شعراء . لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر وينتظم انتظامه . ألا ترى ان العامي قد يقول لصاحبه « أغلق الباب واثني بالطعام » ويقول الرجل لأصحابه « اكرموا من لقيتم من تميم » ومتى تتبع الانسان هذا عرف انه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه . وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد ليس بعدد أهل الصناعة سرقة اذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ ، كقول امرئ القيس :

وقوافيها صحبي علي مطيهم يقولون لانهك أسي ونجملي
وكقول طرفة :

وقوافيها صحبي علي مطيهم يقولون لانهك أسي ونجملي

ومثل هذا كثير . فاذا صح مثل ذلك في بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنشور اتفاقا غير مقصود اليه ، فاذا اتفق لم يكن ذلك شعرا ، وكذلك يمتنع التوارد على بيتين وكذلك يمتنع في الكلام

المنثور وقوع البيتين ونحوهما . فثبت بهذا ان ما وقع هذا الموقع لم يعد شعراً^١ وإنما يعد شعراً ما اذا قصده صاحبه ثانياً له ولم يمتنع عليه ، فاذا كان هو مع قصده لا يثأثي له وإنما يعرض في كلامه عن غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه شعر ولا ان صاحبه شاعر ، ولا يصح ان يقال ان هذا يوجب ان مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب ان يكون شعراً ، لانه لو قصده لكان يثأثي منه . وإنما لم يصح ذلك لان ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعراً من أحد وما كان شعراً من أحد من الناس كان شعراً من كل أحد . ألا ترى أن السوقي قد يقول « اسقني الماء يا غلام سريعاً » وقد يتفق ذلك من الساهي ومن لا يقصد النظم . فأما الشعر اذا بلغ الحد الذي يئنا فلا يصح ان يقع الا من قاصد اليه . وأما الرجز فانه يعرض في كلام العوام كثيراً فاذا كان بيتاً واحداً فليس ذلك بشعر . وقد قيل : ان أقل ما يكون منه شعراً أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها ولم يتفق ذلك في القرآن بحال ، فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجري مجراه في قلته الكلمات فليس بشعر وما اتفق في ذلك من القرآن يختلف الروي ، ويقولون : انه متى اختلف الروي خرج من ان يكون شعراً . وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب معتمدة أو أكثرها ، ولو كان ذلك شعراً لكانت النفوس تنشوف الى معارضته لان طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهله يتقاربون فيه أو يضربون فيه بسهم

فان قيل : في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل هو مزاج متساوي الضروب ، وذلك آخر أقسام كلام العرب . قيل : من سبيل الموزون من الكلام ان تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات ، فان خرج عن ذلك لم يكن موزوناً كقوله :
رب أخ كنت به مقتبطاً أشد كفى بعراً صحبته

نَمْسِكَا مِنِّي بِالْوَدِّ وَلَا أَحْسِبُهُ يَزْهَدُ فِي ذِي أَمَلٍ
نَمْسِكَا مِنِّي بِالْوَدِّ وَلَا أَحْسِبُهُ يَغْيِرُ الْعَهْدَ وَلَا
يَحُولُ عَنْهُ أَبَدًا فَخَابَ فِيهِ أَمَلِي

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح ، وربما كان عندهم مستنكرا بل أكثره على ذلك . وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولا وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التقفية . وبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا وتتم فائدته بالخروج منه ، وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه

فصل

﴿ في نفي السجع من القرآن ﴾

ذهب أصحابنا كلهم الى نفي السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه . وذهب كثير ممن يخالفهم الى اثبات السجع في القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة . وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هرون عليهما السلام ولمسكان السجع قيل في موضع هرون وموسى ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهرون . قالوا وهذا يفارق أمر الشعر لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً إليه ، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي يسمى شعراً وذلك القدر

ما يتفق وجوده من المفحّم كما يتفق وجوده من الشاعر . وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير لا يصح أن يتفق كله غير مقصود اليه ، ويننون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع ، قال أهل اللغة : هو موالاة الكلام على وزن واحد . قال ابن دريد ، سجعت الحماة معناها ردّدت صوتها . وأنشد :

طربت فأبكتك الحمام السواجم تَميل بها ضحوّاً غصون نوائم^(١)
(النوائم ، الموائل : من قولهم جائع نائم أي متخيل ضعفاً) ، وهذا الذي يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز . ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز . وكيف والسجع مما كان يألوه السكمان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن السكمان تنافي النبوات وليس كذلك الشعر . وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاؤوه وكلوه في شأن الجنين : كيف ندي من لا شرب ولا أكل^(٢) ، ولا صاح فاستهلّ ، أليس دمه قد يطل ؟ فقال « أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ » وفي بعضها « أسجعا كسجع السكمان » ؟ فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون في دلالاته . والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم لانه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى

(١) ضحوّاً : ضحى . ونوائم : جم نائم ، قال ابن دريد : ناع يلبع وينوع : تمائل . وبروي « غصون نوائم »
(٢) كانت في الأصل « من لا أكل ولا شرب »

المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت افادة السجع كافادة غيره ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لنجس الكلام دون تصحيح المعنى. فان قيل: فقد يتفق في القرآن ما يكون من القليلين جميعا فيجب أن تسموا أحدهما سجعا. قيل: الكلام في تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا وإلا كنا نأتي على فصل فصل من أول القرآن إلى آخره ونبين في الموضع الذي يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى، ولكنه خارج عن غرض كتابنا، وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين. ثم إن سلم لهم مسلم موضع أو مواضع معدودة، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يبين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه، وأن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعا على ما قد بينا من القليل من الشعر كالببيت الواحد والمصراع والبيتين من الرجز ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال أنه شعر، لأنه لا يقع مقصودا إليه وإنما يقع مغمورا في الخطاب، فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه. ويقال لهم: لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مردولا، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقة، كان قبيحا من الكلام، والسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط، متى أدخل به المنكلم أوقع الخلل في كلامه ونسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مردولا، وربما أخرجه عن كونه شعرا. وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متداني المقاطع، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود

فان قيل : متى خرج السجع المعتدل الى نحو ما ذكرتموه خرج من أن يكون سجعاً ، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه كله سجعاً ، بل يأتي به طوراً ثم يعدل عنه الى غيره ، ثم قد يرجع اليه

قيل : متى وقع أحد مصرعي البيت مخالفاً للآخر كان تخطيطاً وخطباً ، وكذلك متى اضطرب أحد مصرعي الكلام المسجع وتفاوت كان خطباً ، وعلم ان فصاحة القرآن غير مذمومة في الاصل فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب . ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه ، وكانت الطباع تدعو الى المعارضة ، لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم ، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا مميز منها ؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع وليس بسجع عندهم ، وذلك نحو قول البحتري :

تَشَكَّى الوحي ، والليل ملتبس الدجا غَرِيرَةُ الانسابِ مَرَّتْ تَقْبِعُهَا ^(١)
وقوله (البحتري) :

قريب المدى ، حتى يكون الى الندى ، عدو البنى ، حتى يكون معالي ^(٢)
ورأيت بعضهم يرتكب هذا فيزعم أنه سجع مداخل ، ونظيره من القرآن

(١) من قصيدة له يمدح للنوكل ويذكر صالح قلب وهي من خير قصائده . وهذا البيت في نائته . الوحي من قولهم وجيت الناقة وحي وجيت في خفها . والابل الغريبة مذسوبة الى الغريب وهو فعل له كان للنعمان بن المنذر . المرت الارض لا كلاماً بها وان مطرت . والنقيع البئر الكثيرة الماء ، أو هو من المياه البارد المذهب

(٢) من قصيدته في مدح محمد بن همر بن علي بن سر . وهي جلية . المدى الناية . وقوله قريب المدى أي قريب الناية والانهاء فيما يسوءك كالنضب حتى يصير الى الندى فهناك سيب لا غاية لجوده . وهو عدو كل بناء لا يكون بناء للمعالي . وكان من حق الاغراب على البحتري أن يقول « حتى يكون معالياً » والله اراد « حتى يكون بناء معال » فأجراه والبلية بكسر الباء أو ضمها وسكون التون هو ما بنيت ، وهو البنى بالكسر أو الضم أيضاً مقصوداً

قوله تعالى (١٦ : ٢٧) « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ ابْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ » وقوله (١٧ : ١٦) « أَمَرْنَا مُنْشَرِفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا » وقوله (٩ : ٢٤) « أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » وقوله (٣ : ٤٨ ، ٤٩) « وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » ورسولا الى بني اسرائيل « وقوله (١٩ : ٤) « إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » ولو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحبروا فيه ذلك التحبر حتى سماه بعضهم سحرا ، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه اليه ويتوهمونه فيه ، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه ، وليس القوم بعاجزين عن تلك الاساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم . والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل ، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مبانة ذلك وجوه السجع

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبي طالب لسيف بن ذي يزن « أَنْبَتَكَ مَنبِتًا طَابَتْ أَرْوَمَتُهُ ، وَعَزَّتْ جُرْنُومَتُهُ ، وَثَبَتَ أَصْلُهُ وَبَسَقَ فَرْعُهُ ، وَثَبَتَ زَرْعُهُ فِي أَكْرَمِ مَرْطَنٍ ، وَأَطْيَبِ مَعْدِنٍ » وما يجري هذا المجرى من الكلام

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم : ولا معنى لقولهم ان ذلك مشتق من ترديد الحاممة صوتها على نسق واحد وروي غير مختلف ، لان ما جرى هذا المجرى لا يُدْنَى على الاشتقاق وحده ؛ ولو بُيِّنَ عليه لكان الشعر سجعا ، لأن رويته يتفق ولا يختلف . وتتردد القوافي على طريقة واحدة . وأما الامور التي يستريح اليها الكلام فانها تختلف : فربما كان ذلك يسمى ^(١) قافية وذلك انما يكون في الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان [يسمى ^(٢)] مقاطع السجع وربما

(١) في النسخة المخطوطة : مسمى (٢) الزيادة في الطبعة وليست في المخطوطة

سمى ذلك فواصل . وفواصل القرآن - مما هو مختص بها - لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب

وأما ما ذكره من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع وتأخير عنه في موضع لمكان السجع وتساوي مقاطع الكلام ، فليس بصحيح ، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكره . وهي ان إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا ، من الامر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونهوا بذلك على عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا . ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها ، وجعلوها بازاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساوئه فيما جاء به . كيف وقد قال لهم (٥٢ : ٣٤) « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » فعلى هذا يكون المقصد - بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها - اظهار الاعجاز على الطريقتين جميعاً دون التسجيع الذي توهموه

فان قال قائل : القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ففيه من جنس خطبهم ، ورسائلهم ، وسجعهم ، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى ، ولكنه أبدع فيه ضرباً من الابداع ابراعته وفصاحته

قيل : قد علمنا ان كلامهم ينقسم الى نظم ، ونثر ، وكلام مقفى غير موزون ، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع ، ونظم مقفى موزون له روي . ومن هذه الاقسام ما هو سجية الاغلب من الناس . فتناوله أقرب ، وسلوكه لا يتعذر . ومنه ما هو أصعب تناولا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين . وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين : إما بعمل وتكلف وتعلم وتصنع ، أو باتفاق من الطبع وقذف من

النفس على اللسان للحاجة اليه . ولو كان ذلك مما يجوز اتفاهه من الطبايع ، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ويتعرض على ألسنتهم وتجيئ به خواطرهم ، ولا ينصرف عنه السكل^(١) مع شدة الدواعي اليه . ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه وتعلموه ، فالمهله لهم فسيحة والأمد واسم وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم ؟ فقد قيل : أنه اتفق في الأصل غير مقصود اليه على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه تألفه الاسماع وتقبله النفوس ، تدبّعوه من بعد وتعلموه . وحكى لي بعضهم عن أبي عمر^(٢) غلام ثعلب عن ثعلب أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل

وبسمون ذلك الوضع (الهدير^(٣)) واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعت أو جذبت ، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله . وأما ما وقع السبق اليه فيشبه أن يكون على ما قدمنا ذكره أو لا وقد يحتمل - على قول من قال بأن اللغة اصطلاح - أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم . وقد يمكن أن يقال مثله على المذهب الآخر ، وأنهم وقفوا على ما يتصرف اليه القول من وجوه التماصيح ، أو توافقوا هم بينهم على

(١) كانت بالاصلين « عند السكل »

(٢) كانت بالاصلين « أبي عمرو » بالواو وصوابه أبو عمر الزاهد (بحذف الواو) محمد

ابن عبد الواحد غلام ثعلب القفوي الثقة الحافظ له كتب

(٣) لم أعتز بعد على هذه الفصة عن أبي عمر الزاهد ولا عن غيره وليست أعرف هذه الكلمة (الهدير) وليست مثبتة في كتب اللغة لا بهذا المعنى ولا بغيره . وقوله أن اشتقاقها من المتر يدل بعض الشيء على أنها على وزن (قفيل) بمعنى مفعول أي ممتور أي منقطع

ذلك ؛ ويمكن أن يقال ان التواضع وقع على أصل الباب وكذلك التوقيف ، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب ، وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى ، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد وبنوا عليه وطلبوه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها ، ونهش النفوس اليها ، وجمع ^(١) دواعيهم وخواطرم على استحسان وجوه من ترتيبها ، واختيار طرُق من تنزيلها ، وعرفهم بحسن الكلام ، ودلهم على كل طريقة عجيبة ، ثم أعلمهم عجزم عن الاتيان بالقرآن ، والقدر الذي يتناهى اليه قدرهم ، هو ما لم يخرج عن لغتهم ، ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم ، ووجدوا ان هذا انما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة اليه مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه ، دل ^(٢) على انه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة ، ولولا ذلك لكان القوم إذا اهتموا في الابتداء الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه ، فسألوا بقدره بعد التنبيه على وجهه والتحدي اليه أولى ان يبادروا اليه لو كان لهم اليه سبيل . فلو كان الأمر على ما ذكره السائل لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم ، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم ، ولسكانوا يسرعون الى الجواب ويبادرون الى المعارضة ؛ ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد الى الامور البعيدة عن الوهم ، والاسباب التي لا يحتاج اليها ، فيكثر فيها من شعر ورجز ؛ ونجد من بعينه على ثقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الابل وتاجها وكثير من أمرها لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا . ثم كانوا يتفاخرون بالأسن

(١) يريد جمع افعه تعالى

(٢) هذا كلام مضطرب وفي المخطوطة أكثر اضطراباً لأن أول الجملة هناك « بل قد عرض في كلامهم ووجد » بالبناء القبحول « وأن هذا .. » فهذا كما ترى لا يؤدي معنى وأحسب الصواب « ولما وجدوا ان هذا انما تقدر ... دل على ... »

والذلاقة والفصاحة والدراية ويتنافرون فيه ، وتنجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار على ما لا يخفى على أهله . فاستدلنا بتحريم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعاً يخرق العادات ، وهذه سبيل المعجزات

فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الاسجاع ، لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها في باب السجع . وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها تبلغ كلمات ، ولا يرون في ذلك فصاحة بل يروونه عجزاً . فلو رأوا ان ما تلى عليهم من القرآن سجعاً لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن ونتجاوز حده في البراعة والحسن . ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه ، لان ما تخلل بين الامرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قد روه من التسجيع ، لانه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته

ولا بد لمن جاوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب^(١)

(١) الذي ذهب اليه النظام هو ما حكاه ابن الحياط اللخزي في كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندي الملعون » ص ٢٧ قال (أي ابن الراوندي) « وكان يزعم (أي ابراهيم النظام) ان نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة لاني صلى الله عليه وسلم وان الخلق بقدرهم على مثله (ثم قال) هذا مع قول الله عز وجل « قل لئن اجتمعت الانس والجن « الآية اهل - فذلك الله الخبير - ان القرآن حجة لاني صلى الله عليه وسلم على نبوته عند ابراهيم من غير وجه فأحدها ما فيه من الاخبار بالنيوب (وذكر آيات مضت في كتابنا هذا « أعجاز القرآن ») ، الى أن قال : ومثل اخباره بما في نفوس قوم وبما سيقولونه وهذا وما أشبهه في القرآن كثير . فالقرآن عند ابراهيم حجة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الوجوه وما أشبهها وإياها منى الله تعالى بقوله « قل لئن اجتمعت الانس والجن « الآية . انه باختصار أي أن القرآن معجز بمناه وحسب

إليه النظم^(١)، وعباد بن سلمان^(٢)، وهشام الفوطي^(٣) ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه اعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صُرفوا عنه ضرباً من الصرف. ويتضمن كلامه تسليم الخطب في طريقة النظم، وأنه مستظم من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم ولا يخرج عنها، ويستعين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذي وقع التحدي إليه. وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع إليه وقد علمنا عاداتهم في خطابهم وكلامهم أنهم كانوا لا يلزمون أبداً طريقة السجع والوزن، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمي الكلامين



(١) النظم هو أبو اسحاق إبراهيم بن سيار ذكره الذهبي فيمن مات بين سنة ٢٢١ إلى سنة ٢٣١ هـ. من تعليقات الانتصار ص ١٨٢

(٢) ذكر صاحب الانتصار في ص ٩٠، ٩١ وجلا اسمه عباد بن سلمان وترجم له ابن الرقعي بهذا الاسم وقال كان من أصحاب هشام الفوطي عاش هذا الرجل في القرن الثالث. من تعليقات الانتصار ص ٢٠٣

(٣) بالاصل القحطوط (القرطبي) والمطبوع (القرطبي) والصواب ما أثبتناه. والفوطي بضم الفاء ففتح الواو نسبة إلى الفوط وهو نوع من الثياب واحدة فوطه (السمعاني). وهو هشام بن عمرو الشيباني ذكره ابن الرقعي وله مات في الربع الأول من القرن الثالث هـ. تعليقات الانتصار ص ١٩٢ - ١٩٣ وذكر هشاماً بهذا ابن حزم في كلامه في الملل والنحل ج ٤ ص ١٩٦، ٢٠٢

فصل

﴿ في ذكر البديع من الكلام ﴾

ان سأل سائل فقال : هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع ؟

قيل : ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها ، ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصور . ذكروا ان من البديع في القرآن قوله عز ذكره (١٧ : ٢٤) « واخفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » وقوله (٤٣ : ٤) « وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ » وقوله (١٩ : ٤) « واشتعل الرأس شَيْبًا » وقوله (٣٦ : ٣٧) « وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ » وقوله (٢٢ : ٥٥) « أَوْ يَذَّبُكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ » وقوله (٢٤ : ٣٥) « نُورٌ عَلَى نُورٍ » . وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة كقوله (٢ : ١٧٩) « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » وفي الألفاظ الفصيحة كقوله (١٢ : ٨٠) « فَلَمَّا اسْتِيقَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » وفي الألفاظ الالهية كقوله (٢٧ : ٩١) « وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ » وقوله (١٦ : ٥٣) « وَمَا يَكُمُ مِنْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ » وقوله (٤٠ : ١٦) « لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » ويذكرون من البديع من قول النبي ﷺ « خَيْرُ النَّاسِ رَجُلٌ تُمْسِكُ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا ^(١) » وقوله « رَبَّنَا تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ حَوْبَتِي ^(٢) » وقوله « غَلَبَ عَلَيْكُمْ دَاوُدُ الْأَنْثَمُ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ

(١) الهية : صوت الصارخ النزع

(٢) الحوبة : الخطيئة والذنب

والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدين لاحالقة الشعر « وكقوله « الناس كابل مائة لا نجد فيها راحلة » وكقوله « وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد أسيئتهم ^(١) » وكقوله « ان مما يُذبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُبلم ^(٢) »

وكقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه ^(٣) وقوله لخالد بن الوليد « احرص على الموت توهب لك الحياة » وقوله « فر من الشرف يتبعك الشرف »

وكقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في كتابه الى ابن عباس وهو عامله على البصرة « ارغب راغبهم واحمل عقدة الخوف عنهم » وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ « انما قال ذلك والذين في قل قلم فاما وقد اتسع نطاق الاسلام فكل امرئ وما اختار » وسأل علي رضي الله عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم فقال « لاردشير فضيلة السبق غير

(١) قال ابن الاثير بعد ذكر الحديث « أي ما يقتلعونه من الكلام الذي لا خير فيه واحدها حصيدة تشيها بما يحصد من الزرع وتشبيها لسان وما يقتطعه من القول بحمد المنجل الذي يحصد به »

(٢) قال الازهرى وابن الاثير ان هذا الخبر لا يكاد يفهم اذا فرق أو بقر فرأينا اثباته هنا . روى البخاري في صحيحه (المطبوعة البونينية ج ٨ ص ٩١) عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان اكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض . قيل وما بركات الارض ؟ قال زهرة الدنيا . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالسر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننا انه ينزل عليه . ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد لقد حمدناه حين طلم ذلك . قال : لا يأتي الخير الا بالخير ان هذا المال خفسة حلوة وان كل ما أبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم الآفة الخفسة أكلت حتى اذا امتدت خاصرناها استقبلت للشمس قابضت وثقلت وبألت ثم حادت فأثارت ، وان هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضع في حقه فتمم للموتة هو ، ومن أخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع . اهـ من كتاب الرقاق من البخاري (٣) انظر بعد « خطبة أبي بكر ومعه الى عمر رضي الله عنه »

ان أحمدهم أنو شروان « قال « فأي أخلاقه كان أغلب عليه ؟ » قال « الجلم والأناة » فقال علي رضي الله عنه « هما توأمان يُفْتَجِّهُمَا علو الهمة » وقال « قيمة كل امرئ ما يُحْسِن » وقال « العلم قُفْلٌ ومفتاحه المسئلة »

وكتب خالد بن الوليد الى مرزبة فارس « أما بعد فالحمد لله الذي فضَّ خدمتكم وفرَّق كلمتكم » والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل خِدام وقال الحجاج « دلوني على رجل سمين الأمانة »

ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسبي ^(١) على الخوارج أرادوه على الكلام فقال « لاخبر في الرأي الفطير ^(٢) » وقال « دَعُوا الرَّأْيَ يُغَيِّب ^(٣) »

وقال اعرابي في شكر نعمة « ذاك عُنوان نعمة الله عز وجل » ووصف اعرابي قوماً فقال « إذا اصطَفُوا سَفَرَتْ بينهم السهام وإذا تصافحوا بالسيوف قَعَدَ الجُحَام ^(٤) » وسئل اعرابي عن رجل فقال « صَفِرَتْ عِيَاب الوُدِّ بيني وبينه بعد امتلائها ، واكْفَهَرَتْ وجوه كانت بِمَائِهَا ^(٥) » وقال آخر « من ركب

(١) من بني راسب بن مالك له ادراك وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص زمن عمر وكان مع علي في حروبه حتى وقع التحكيم وأنكرته الخوارج وأسموا عليهم عبداً لله بن وهب وكان عجيباً في العبادة حتى لب لكثرة عبادته وسجوده « ذا الثغفات » وقتل يوم النهروان . اهـ ، باختصار عن الاصابة

(٢) الفطير ما أعجل عن ادراكه ونضجه

(٣) يغيب بفتح الباء المشددة لا الفم وللقى ذهبوا الرأي بمكث يوماً أو يومين حتى ينضج (٤) سفرت السهام صارت كالسفرأ وهي الرسل بين القوم لصلح أو غيره ، أي انهم حين يبرزون للحرب فسفرأهم السهام . وحين يرى الموت سيوفهم بقعد ليستريح ، فسيوفهم موت آخر

(٥) صفرت : خلت . والعِيَاب جمع عيبة وهي ما تجمل فيه الثياب ، يريد بالعياب الصدور . واكفر وجهه انقبض وكلم حتى ما يرى به أثر بشر أو فرح ، وأراد بقوله « بمائها » أي ماء البشر

ظَهَرَ الْبَاطِلُ نَزَلَ دَارَ النَّدَامَةِ « وقيل لرؤبة : كيف خلقت ما وراءك ؟ فقال
« الترابُ يابس ، والمالُ عابس »^(١)

ومن البديع في الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على
ما بعدها ، فن ذلك قول امرئ القيس :

وقد اغتدي والطيرُ في وُكُنَاتِهَا بِمَنْجَرٍ قَيْدِ الْاَوَابِدِ هَيْكَلِ^(٢)

قوله « قيد الاوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة ويروونه من الالفاظ
الشريفة ، وعنى بذلك انه اذا ارسل هذا الفرس على الصيد صار قيذا لها ،
وكانت بحالة المقيّد من جهة سرعة إحضاره . واقتدى به الناس واتبعه الشعراء
فقيل : « قيدُ النواظر » و « قيدُ اللاحاظ » و « قيدُ الكلام » و « قيدُ الحديث »
و « قيدُ الرهان » وقال الأسود بن يعفر :

بِمُقْلَاصٍ هَتْدٍ جَهِيْزٍ شَدَّ قَيْدَ الْاَوَابِدِ وَالرَّهَانِ جَوَادِ^(٣)
وقال أبو تمام :

لَهَا مَنَظَرُ قَيْدِ الْاَوَابِدِ لَمْ يَزَلْ بَرُوحٌ وَيَغْدُو فِي خَفَارَتِهِ الْخُبُّ
وقال آخر :

الْحَاظُهُ قَيْدُ عَيُونِ الْوُرَى فَلَيْسَ طَرَفٌ يَتَعَدَّاهُ
وقال آخر :

قَيْدُ الْحُسْنِ عَلَيْهِ الْحَدَقَا

(١) الجملة الاولى أراد بها القنطع ، وأراد بالثانية فة المال وانه لا يؤاني فهو عبوس الوجه قاطبه

(٢) وكناتها أوكارها . منجرد تصير الشعر وذلك فيه هتق . قيد الاوابد بقيد الاوابد وهي اخر الوحشية والوحش بلعاقه اياها على سرعتها . الهيكل العظيم الخلق

(٣) في الاصل المخطوط والمطبوع « عتر جهيز » بالراء نهاية في كتيهما وهو خطأ . فرس منلس طويل القوائم منصف البطن . عند بفتح أوله وثانيه أو كسره شديد تام الخلق سريع الوثبة معد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . قال أبو عبيدة جهيز شده سريع العدو

وذكر الأصمعي وأبو عبيدة وجهاد وقبلهم أبو عمرو أنه ^(١) أحسن في هذه اللفظة وأنه أتبع فيها فلم يلحق ، وذكره في باب الاستعارة البليغة ، وسماها بعض أهل الصنعة بامم آخر ، وجعلوها من باب الازداف ، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف . قالوا ومثله قوله ^(٢) :

نُؤوم الضحى لم تنتطيق عن تفضل

وانما أراد ترفهها بقوله « نُؤوم الضحى » ومن هذا الباب قول الشاعر :

بعيدة مهبوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
وانما أراد أن يصف طول جيدها ، فأتى بردفه . ومن ذلك قول

أمرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

وذلك من الاستعارة الملية . ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن (١٩ : ٤) « واشتعل الرأس شيبا » (١٧ : ٢٤) « واخفض لها جناح الذل من الرحمة » ، ومما يعدونه من البدع التشبيه الحسن كقول أمرئ القيس :

كأن عبون الوحش حول خباثنا وأرحلنا الجزع الذي لم يُثَقِّب ^(٣)
وقوله :

كأن قلوب الطير رطباً وباساً لدى وكرها العناب والحشف البالى
واستبدعوا تشبيهه شيتين بشيتين على حسن تقسيم ويزعمون ان أحسن ما وجد في هذا للمحدثين قول بشار :

(١) يريد اسم القيس

(٢) هو اسم القيس أيضاً

(٣) الجزع الحرز النجاني وهو الذي فيه ياض وسواد

كَانَ مُثَارًا النَّقْمَ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ نَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم في التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من
تشبيه احدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل . وكذلك عدوا
من البديع قول امرئ القيس في أذني الفرس
وَسَامِعَتَانِ يُعْرِفُ الْعِتَقُ فِيهَا كَسَامِعَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطَ رِزْبٍ
وانبعا طرفه فقال فيه :

وَسَامِعَتَانِ يُعْرِفُ الْعِتَقُ فِيهَا كَسَامِعَتِي شَاقِرٌ بِحَوْمَلٍ مُفْرَدٍ
ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس :
وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ وَتَحْجِيرٍ إِلَى سَنَدٍ مِثْلِ الصَّفِيحِ الْمُنْصَبِ (١)
وقال طرفه في وصف عبي ناقته :

وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَتَيْنِ اسْتَكْنَتَا بِكَمْفَتِي حِجَابِي صَخْرَةً قَلَمْتُ مَوْرِدَ (٢)
ومن البديع في التشبيه قول امرئ القيس :

لَهُ أَيْطَلَا ظَهْرٌ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَارْخَاهُ سَرْحَانُ تَقَرِيبُ تَقْفَلِ
وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها (٣)
ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى (٥٥ : ٢٤) « وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنْمَشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » وقوله تعالى (٣٧ : ٤٩) « وَكَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ
مَكْنُونٌ » وموضع نذكرها بعد هذا

ومن البديع في الاستمارة قول امرئ القيس :

وَلَيْلٍ كَوَجِّ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُوهَ عَلَى بَأْنَوَاعِ الْهُمُومِ لَيْتَكِي
فَقُلْتُ لَهُ لِمَا نَطَلَّ بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَامَ بِكُلِّ كَلِّ

(١) الماوية المرأة . ويريد بالسند الحذر

(٢) استكن اختبأ والحجاج منبت شعر الحاجب والفلت وقبة العين وأصله نقرة في الجبل تحسك الماء

(٣) هي تشبيه كسحبه بكسحي الظبي اياله الى عباتهما ، وساقيه بساقي النعامة ، وعدوه بعنود النعامة .
وانه يرفع يديه معا وينزلها معا كما يفعل ولد الثعلب ، يريد انه سريع الخطا صليب القوائم

وهذه كلها استعارات أتى بها في ذكر طول الليل . ومن ذلك قول النابغة :
 وصدر أراحَ الليلُ عازبَ همته تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبٍ
 فاستعاره من اراحة الراعي ابله الى مواضعها التي تأوي اليها بالليل . وأخذ
 منه ابن الدمينه فقال :

أقضي نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم والليل جامع^(١)
 ومن ذلك قول زهير :

صحا القلبُ عن ليلى وأقصرَ باطله وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله
 ومن ذلك قول امرئ القيس :

سَمَرْتُ اليها بعدَ ما نام أهلها سُمُو حجاب الماء حالاً على حالٍ
 وأخذه أبو تمام فقال :

سُمُو حجاب الماء جاشت غواربه

وانما أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه . ومن ذلك قوله :

كأنى وأصحابي على قرن أغفرا

يريد أنهم غير مطمئنين

ومن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله بن سعيد قال : أخبرني أبي قال
 أخبرنا عسل بن ذكوان ، أخبرنا أبو عثمان المازني قال : سمعت الأصمعي
 يقول : أجمع أصحابنا أنه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة :
 فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإن خلت أن المُنْتَأَى عنك واعمُ
 قال الحسن بن عبد الله : وأخبرنا محمد بن يحيى ، أخبرنا عون بن محمد
 السكندي ، أخبرنا قعنب بن مُحَرِّز قال : سمعت الأصمعي يقول : سمعت

(١) كذا في الاصلين والذي يرويه الثعالبي في اماليه :

أقضي نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعني بالليل والهم جامع

من قصيدة لقيس بن ذريح . وقبله :

نهارى نهار الناس حتى اذا دجا لي الليل هزني اليك المضامع

أبا عمرو يقول : كان زهير يمدح السُّوقَ ، ولو ضرب على أسفل قدميه مِثْنًا
ذَقْلٌ (١) على أن يقول كقول النابغة :

فأنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
لما قل ، يريد أن سلطانه كالليل يصل إلى كل مكان . واتبعه الفرزدق فقال :
ولو حَمَلْتَنِي الرِّيحُ ثم طَلَبْتَنِي لَسَكَنْتُ كَشْيِمْ أَدْرَكْتَنِي مَقَادِرُهُ
فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق إليه النابغة ثم أخذه الأخطل فقال :

وإن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وفعله كالدهر لا عار بما فعل الدهر
وقد روي نحو هذا عن النبي ﷺ « نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل
رحمي وليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » وأخذه علي بن [جبلة] (٢) فقال :
وما لأمريء حاولته عنك مَهْرَبٌ ولو كان في جوف السماء المطالع
يلى هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع
ومثله قول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبشوناً حَبَائِلُهُ والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكْتُ عِنانَ الرِّيحِ أَصْرَفُهُ في كل ناحية ما فاقك الطلب
فأخذه البحتري فقال :

ولو أنهم ركبوا السكوا كب لم يكن ينجيهم عن خوف بأسك مهرب
ومن بديع الاستعارة قول زهير :

فلما وردن الماء زُرْقًا جَهِامُهُ وضمن عصي الحاضر المتخيم
وقول الأعشى :

(١) هنا بالأصل الخطي زيادة كلمة [صى] هكذا بلا أعجام ولعلها صتي . والصني : الصباح . أي
يسمع لهذا الضرب صوت الصباح .

(٢) بالأصل ياش يقسم لكلمة واحدة ، وقد اكملناه من معاهد التنصيص ، وروايه للمعاهد :

وما لأمريء حاولته منك مهرب ولو رقته في السماء المطالع
وبعد البيت الثاني كرواية المؤلف ثم قل : « وأكثر الأدباء يرجعونه على بيت النابغة » .

وان عتاق العيس سوف يزورك
ومنه أخذ نصيب فقال :

فعاوجوا فاثروا بالذي أنت أهله
ومن ذلك قول تابط شرا :

فخالط سهل الأرض لم يكبح الصفا به كدحةً والموت خزبان ينظر
ومن الاستمارة في القرآن كثير كقوله (٤٣ : ٤٤) « وانه لذكر لك
وتقومك » يريد ما يكون الذكرك عنه شرفا . وقوله (١ : ١٣٨) : « صبغة الله
ومن أحسن من الله صبغة » قيل ذكرك الله أراد وقوله (١ : ١٦) : « اشتروا
الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم »

ومن البديع عندهم الغلو^(١) : كقول النمر بن تولب

أبقى الحواث والأيام من نمر
تظل تحفر عنه ان ضربت به
و كقول النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه
ويوقذن بالصفا نار الحباحب
و كقول عنتره :

فازور من وقع القنا بلبانه
وشكا الى بعبرة وتحمحم
و كقول أبي تمام :

لو يعلم الركن من قد جاء بلثمه
لخر يلثم منه موطن القدم
و كقول البحتري :

(١) الغلو: ادخال بلوغ وصف في الشدة أو الضعف حدا يستحيل ان يصدقته العقل أو يدعن له
العرف . ولا يقل منه عند الادباء الا ما اقترن به شيء يقربه من الصحة أو تضمن حسن تعجيل أو ما
خرج عرج الخلاعة . وتفصيل هذه الاشياء في مظانها من كتب البلاغة
(٢) الرواية في غير هذا الكتاب :

أبقى الحوادث والأيام من نمر
تظل تحفر عنه الأرض مندقما
أسباب سيف كريم اثره بادي
بعد الذراعين والقيدين والمادي

ولو ان مشتاقا نكاف فوق ما في وسعه ، لمشى اليك المنبر
ومن هذا الجنس في القرآن (٣٠ : ٥٠) : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت
وتقول هل من مزيد » وقوله (١٢ : ٢٥) : « اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها
تغيظا وزفيرا » وقوله (١ : ٦٧) : « نكاد نميز من الغيظ »

ومما يعدونه من البديع الماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك أن يقصد
الإشارة الى معنى فيضم ألفاظا تدل عليه وذلك المعنى بالفاظه مثال للمعنى الذي
قصد الإشارة اليه ^(١) نظيره من المنثور أن يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن
محمد يتلكأ عن بيعته فكتب اليه « أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى
فاعتمد على أيهما شئت » وكنحو ما كتب به الحجاج الى المهلب « فان أنت
فعلت ذاك والا أشرعت اليك الرمح » فأجابه المهلب « فان أشرع الامير
الريح قلبت اليه ظهر الحجن » وكقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطيع العوالي ركب كل لهدم
وكقول امرئ القيس :

وما بذرت عينك الا لتضربني بسهميك في أعشار قلب مَقْتَل
وكقول عمرو بن معدى كرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقْتُ ، ولكن الرماح أجرت
وكقول القائل :

بنى عمنا لاتذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا
وكقول الآخر :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لساني

(١) كذلك فسرهما أبو هلال العسكري وهو غير المعنى الذي استعمل عليه المتأخرون حيث فسروها
بان تتأهل الفاظ الكلام أو بعضها في الوزن دون النغمة ، كقول امرئ القيس :
كأن الدمام وصوب النعام وريح الخزامى ونشر القطر
وكقول ابن حمديس :

على قرب غذائي وفقد أحبي وأمواء أجفاني ونيران اضلعي

ومن هذا الباب في القرآن كقوله (١ : ١٧٥) : « فإصبرم على النار »
وكقوله (٤ : ٧٤) : « وثيابك فطهر » قال الاصمعي : أراد البدن قال : وتقول
العرب « فدي لك ثوبي » يريد نفسه « وأنشد :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخى ثقة ازاري
ويرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة ، وأكثرم على أن معناها أن
يذكر الشيء وضده كالليل والنهار ، والسواد والبياض ، واليه ذهب الخليل بن
أحمد والاصمعي ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز وذو ابن المعتز من نظائره من
المنثور ما قاله بعضهم : « أتيناك لئسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق
الضمان » ونظيره من القرآن (١ : ١٧٩) : « ولكم في القصص حياة » وقوله
(٣٠ : ١٩) : « يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » وقوله (٢٢ :
٦١) : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل »^(١) ومثله كثير جدا ، وكقول
النبي ﷺ للانصار « انكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » وقال
آخرون : بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة ، واليه ذهب قدامة بن
جعفر الكاتب ، فمن ذلك قول الافوه الاودي :

وأقطع الموجل مستانسا بهوجل مستانس عنفريس
عنى بالهوجل الاول الارض وبالثانى الناقة . ومثله قول زياد الاعجم :
وُنُبِّتْهُمْ يَسْتَنْظُرُونَ بِكَاهِلٍ وَلِلَّوْمِ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسَنَامٌ
ومثله قول أبي دواد :

عهدت لها منزلا دائرا وآلا على الماء يحملن آلا
فالآل الاول اعمدة انقيام تنصب على البئر للسقى ، والآل الثاني السراب ؛
رئيس عنده قول من قال : المطابقة انما تكون باجتماع الشيء وضده بشيء ،
ومن المعنى الاول قول الشاعر :

(١) وفي (٣٥ : ١٣) و (٥٧ : ٦) و (٣١ : ٢٩)

أهين هم نفسي لا كرمها بهم وإن تُسكروا النفس التي لأتئبها
ومثله قول امرئ القيس :
وتردى على صم صلاب ملاطس شديداً عقد لِيَنَاتِ مَتَانِ
وكقول النابغة :
ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
وكقول زهير وقد جمع فيه طباقين :
بعزيمة مأمور مطيع وأمر مطاع ، فلا يُلقى لحزمهم مثل
وكقول الفرزدق :
والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانيبه نهار
ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير :
وباسط خير فيكم يمينه وقابض شر عنكم بشماله
وكقول رجل من بلعمير :
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
وروى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه تمثل بقول القائل :
فلا الجود يُفنى المال والجُدُّ مقبل ولا البخل يُبقى المال والجُدُّ مدبر
وكقول الآخر :
فسرى كأعلائي وتلك سحبي وظلّمة ليلي مثل ضوءه نهاريا
وكقول قيس بن الخطيم :
إذا أنت لم تنفع فضر ، فأنما يرجى الفقى كما يضر وينفع
وكقول السموأل :
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
فهذا باب يرويه من البديع

وباب آخر وهو التجنيس ومعنى ذلك أن تأتى بكلمتين متجانستين : فمعه
 ماتسكون الكلمة تجانس الاخرى في تأليف حروفها واليه ذهب تحليل ، ومنهم
 من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق ، كقوله عز وجل
 (٤٢ : ٣٠) « فاقم وجهك للدين القيم » وكقوله (٢٧ : ٤٤) « وأسألتُ مع
 سليمان » وكقوله (١٢ : ٨٤) « يا أسفا على يوسف » وكقوله (٦ : ٨٢) :
 « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن » وكقوله (٦ : ٢٦)
 « وهم يهون عنه وينأون عنه » وكقول النبي ﷺ « أسلم سالما الله وغفار
 غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله » وكقوله « الظلم ظلمات يوم القيامة »
 وقوله « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » وكتب بعض الكتاب « العذر
 مع التعتذر واجب فأريك فيه » وقال معاوية لابن عباس : ما ليكم يا بني هاشم
 تصابون في أبصاركم ؟ فقال : كما تصابون في بصائرهم . وقال عمر بن الخطاب رضي
 الله عنه « هاجروا ولا تمجروا » ومن ذلك قول قيس بن عاصم :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة كسفته نجيعا من دم الجوف أشكلا

وقل آخر : أملَ عليها بالبللى الملوان

وقل الآخر :

وذا كم أن ذل الجار حالكم وأن أنفسكم لا نعرف إلا نفا

وكتب الى بعض مشايخنا قل : أنشدنا الاخفش عن المبرد عن التوزي :

وقالوا حمامات فحمّ لقاءها وطلح فزيرت والمطى طلوح

عقاب بأعقاب من النأى بعدما جرت نية تنسى المحب طروح

وقال صحابي هدهد فوق بانه هدى وبيان بالنجاح يلوح

وقالوا دم دامت موثيق مهده ودام لنا حسن الصفاء صريح

وقال آخر :

أقبلن من مصر يبار بن البري

وقال القطامي :

ولما ردها في الشول شالت بذيال يكون لها لغاعا
وقد يكون النجيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك^(١) ، كقول البحترى
هل لما فات من تلاف تلاف أم لشاك من الصبابة شاف^(٢)
وقول ابن مقبل :

يمشبن هيل النقا مالت جوانبه ينهال حيناً وينهال الثرى حيناً
وقال زهير :

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا لا ينسكلون اذا ما استلحموا وحوا
ومن ذلك قول أبي تمام :

يمدّون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب
وأبو نواس يقصد في مصر أعى مقدمات شعره هذا الباب كقوله :
ألا دارها بالماء حتى تلبينها فلن تكرم الصبابة حتى تمينها
وكذلك قوله :

ديار نوار ما ديار نوار كسوك شجواً هن منه عوار
وكقول ابن المعتز :

سأنتى على عهد المطيرة والاقصر وأدعوها بالسكنين وبالقطر
وكقوله :

هي الدار إلا أنها منهم قفر وأني بها ثاو وإنهم سقر
وكقوله :

للأمانى حديث يقر ويسوء الدهر من قد يسر

(١) يريد بما يقاربه ان يكون حرف مكان حرف كما سيذكر من الامثلة

(٢) محل الاستشهاد في بيت البحترى الشطر الثاني ، فالأول فداخل في معني النجيس الاول

وكقول المتنبي :

وقد أراني الشبابُ الرُّوحَ في بدني وقد أراني المشيبُ الروحَ في بدلي
وقد قيل ان من هذا القبيل قوله عز وجل (٢١ : ٣٧) « خلق الانسان
من عجل سأريك آياتي فلا تستعجلون » وقوله (٣٩ : ١٤ - ١٥) (قل الله أعبد
مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه »
ويعدون من البديع المقابلة وهي أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد
بضده وذلك مثل قول النابغة الجعدي :

ففي نَمِّ فيه ما يسر صديقه علي ان فيه ما يسوء الأعدايا
وقال تأبط شرا :

أهز به في ندوة الحى عطفه كماهز عطفني بالهجان الاوارك
وكقول الآخر :

واذا حديث ساءني لم أكتنب واذا حديث سرني لم أمرر
وكقول الآخر :

وذى اخوة قطعت أقران بينهم كما تركوني واحدا لا أخاليا
ونظيره من القرآن (١٦ : ٥٣ - ٥٤) . « ثم اذا مسكم الضر فاليه
تجهأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم يرميهم يشركون »
ويعدون من البديع الموازنة ^(١) وذلك كقول بعضهم : اصبر على حر اللقا
ومضض النزال وشدة المصارع ^(٢) وكقول امرئ القيس :

سليم الشظا عبل الشوى شنيج ^{الذسا}

(١) الموازنة : تساوى الفاصلتين في الوزن دون التقفية نحو : (و غارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة)

وكقول امرئ القيس :

اعاد فساد ، وقاد فزاد وساد فجاد ، وعاد فافضل

وهي تشبه بالمائة التي سلف ذكرها ، والفرق بينهما دقيق

(٢) في النسخة الخطية « المصارع »

ونظيره من القرآن (٨٥ : ١ - ٣) « والسما ذات البروج . واليوم الموعود
وشاهد ومشهود »

ويعدون من البديع المساواة وهي أن يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد
عليه ولا ينقص عنه وذلك بعدة من البلاغة وذلك كقول زهير :
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكقول جرير :

فلو شاء قومي كان حلبي فيهم وكان على جهال أعدائهم جهلي^(١)
وكقول الآخر :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخطا أصبت حلبي أو أصابك جاهل
وكقول الهذلي :

فلا نجز عن من سئة أنت سرتها وأول راض سيرة من يسيرها
وكقول الآخر :

فإن هم طأعوك فطأعوهم وإن عاصوك فاعصى من عصاك
ونظير ذلك في القرآن كثير

ومما يعدونه من البديع الإشارة وهو اشتغال اللفظ القليل على المعاني
الكثيرة . وقال بعضهم في وصف البلاغة لمحة دالة^(٢) . ومن ذلك قول جرير :
فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب
وكقول زيد الخيل :

فخبة من يخيب على غنى وباهلة بن أعصر والرباب
ونظيره من القرآن (١٣ : ٣١) « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو
قطعت به الأرض أو كلم به الموني » ومواضع كثيرة

ويعدون من البديع المبالغة والغلو^(٣) والمبالغة تأكيد معاني القول وذلك

(١) في النسخة الخطية ، وكان على أعداء جهلم جهلي ، ولعله سهو من النسخ

(٢) نسبة ابن رشيق لحلف الأحمر

(٣) قد تقدم له ذكر الغلو ، وشرحنا معناه عندئذ

كقول الشاعر :

ونكرم جارنا ما كان فينا وننبه السكامة حيث مالا
ومن ذلك قول الآخر :

وهم تركوك أسلج من حبارى رأيت صقراً وأشرّد من نعام
فقوله رأيت صقراً مبالغة . ومن الغلو قول أبي نواس :

توهمتها في كأسها فكانما توهمت شيئاً ليس يدركه العقل
فما يرتقي التكيف فيها إلى مدى بمجد به إلا ومن قبله قبل
وقول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو بمجدهم قمعدوا
وكقول النابغة :

بلغنا السماء بمجدنا وسناؤنا وأنا لئرجو فوق ذلك مظهرا
وكقول الخنساء :

وما بلغت كف امريء متناول بها المجد إلا حينما نلت أطول
وما بلغ المهدون في القول مدحة وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل
وقول الآخر :

له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البرأندى من البحر
ويرون من البديع الايغال^(١) في الشعر خاصة فلا يطلب مثله في القرآن
إلا في الفواصل كقول امريء القيس :

كان عيون الوحش حول خبائثنا وأرحلنا الجزع الذي لم ينقب
وقد أوغل بالغاوية في الوصف وأكد التشبيه لها والمعنى قد يستقل دونها

(١) الايغال : ان يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسن

ومن البديع عندهم التوشيح وهو أن يشيد أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره كقول البحتري :

فليس الذي حالته بمحلل وليس الذي حرمة بحرام
ومثله في القرآن (٥ : ٣٩) « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه »

ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول الله عز وجل (١٧ : ٢١)
« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »
وكقوله (٢٠ : ٦١) : « لا تقروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » : ومن هذا الباب قول القائل :

وان لم يكن إلا تعلل ساعة قليلا فاني نافع لي قليلا
وكقول جرير :

سقى الرمل جون مستهل غمامه وما ذاك إلا حب من حل بالرمل
وكقول الآخر :

بود الفتى طول السلامة والفتى فكيف يرى طول السلامة يفعل
وكقول أبي صخر الهذلي :

عجبت لسمي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وكقول الآخر :

أصد بأيدي العيس عن قصد أرضها وقلي بها بالمودة قاصد
وكقول عمرو بن معدى كرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ومن البديع صحة التفسير^(١) ومن ذلك قول نصيب :

(١) التفسير الصحيح ان تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع انواعه ولا يخرج منها جنس من اجنسه . فمن ذلك قول الله تعالى (هو الذي يرثكم البرق خوفا وطمعا) وهذا احسن تفسير لانت الناس عند رؤية البرق بين خائف وطماع

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما يدري
وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا . وكقول الآخر :
فكانما فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم
وقول المقيم الكندي :

وان ياكلوا لحمي وفرت لحومهم^(١) وان يمدوا مجدي بنيت لهم مجددا
وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هووا غيبي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بي زجرت لهم طيرا تمر بهم مسعدا
وكقول عروة بن حزام :

من لو أراه غائبا لفديته ومن لو رآني غائبا لفداني
ونحوه قول الله عز وجل (١ : ٢٥٧) « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من
الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور
الى الظلمات »

ونحوه صحة التفسير ، كقول الفائل :

ولى فرس بالحلم بالحلم ملجم ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
ومن البديع التكميل والتنبيه^(٢) كقول نافع بن خليفه :
رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع
وانما تم جودة المعنى بقوله ويعطوه وذلك كقول الله عز وجل (٣١ : ٣٤)
« ان الله عنده علم الساعة » الى آخر الآية . ثم قل : « ان الله عليم خبير »
ومن البديع الترصيع^(٣) وذلك من ألوان منها قول امرئ القيس :

(١) الرواية : قل ياكلوا لحمي وفرت لحومهم

(٢) هو ان توفى المعنى حظه من الجودة و تعمله نصيبه من الصحة ، ثم لا تتأدر معنى يكون فيه
تمامه الا نوره او افلا يكون فيه توكيده الا تذكره

(٣) الترصيع : ان يكون حشو البيت مسجوعا ، وهو انواع وضروب

محش مخش مقبل مدبر معا كتييس ظباء الحلب في العدوان^(١)

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس

يامنة امتنها السكر ما ينقضي مني لها الشكر

و كقوله وقد ذكرناه قبل هذا :

ديار فوار ما ديار نوار كسوك شجوا من منه عوار

ومن ذلك الفرصيع مع التجنيس كقول ابن المعتز :

ألم تجزع على الزبع المحبل وأطلال وآثار محول

ونظيره من القرآن كقوله : (٧ : ٢٠١ - ٢٠٢) « ان الذين اتقوا اذا

مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في النفي

ثم لا يقصرون » وقوله (٦٨ : ٢ - ٣) : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان

لك لا جراً غير ممنون » و كقوله (١٠٠ : ٧ - ٨) « وانه على ذلك شهيد وانه

لحب الخير لشديد » و كقوله (٥٢ : ١ - ٢) : « والطور . وكتاب مسطور »

وقوله (٧٩ : ٣ - ٤) : « والسابحات سبحاً . فالسابحات سبقاً » وقد أولع

الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف

الكلام ومنهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومي :

أبدانهم وما لبد ن من الحرير ممأ حرير

أردانهم وما مس ن من العبير ممأ عبير

و كقوله :

فلراهب أن لا يربب أمانه ولراغب أن لا يريث نجاحه

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى المضارعة وذلك كقول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخليفة مه دي الطريقة نفاع وضرار

(١) هذه رواية البيت في اصول الكتاب « وفي شعر امرئ القيس مكر مفر الخ ، والحلب : بقعة
تأكلها الوحش فتضم عليها بطونها وقال القتيبي هو نبات تمتاده الفيل يخرج منه ما يشبه اللبن فاقطع وانما
سمي الحلب لتجابه ، والمدون : الممرع

جواب قاصية جزاز ناصية عقاد ألوية للخييل جرار
ومن البديع باب التكافؤ ، وذلك قريب من المطابقة ، كقول المنصور :
« لا تخرجوا من عز الطاعة الى ذل المعصية » وقول عمر بن ذر : « انا لم نجد لك
اذ عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك » ومنه قول بشار :
اذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها مِعْراً نَم نَم
ومن البديع باب التعتطف ؛ كقول امرئ القيس :
عود على عود على عود خلق

وقد تقدم مثله

ومن البديع السلب والایجاب ، كقول القائل :
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
ومن البديع السكناية والتعريض ، كقول القائل :
وأحر كالديباج أما مماؤه فرياً وأما أرضه فمحول
ومن هذا الباب لحن القول

ومن ذلك العكس والتبديل ، كقول الحسن : « ان من خوفك لتأمن
خير من أمتك لتخاف » و كقوله : « اللهم أغنى بالفقر اليك ولا تفقرني
بالاستغناء عنك » و كقوله : « بم دنياك بأخرك تربحها جميعاً ، ولا تبع
آخرك بدنياك فتخسرهما جميعاً » و كقول القائل :

واذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا
وقد يدخل في هذا الباب قوله تعالى (٢٢ : ٦١) : « يولج الليل في
النهار ويولج النهار في الليل » . ومن البديع الانتفات ، فمن ذلك ما كتب الى
الحسن بن عبد الله العسكري ، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي ، حدثني يحيى
ابن علي المنجم عن أبيه عن اسحاق بن ابراهيم قال : قال لي الأصمعي : أتعرف
الانتفات جرير ؟ قلت : لا ، فاهي ؟ قال :

أندسى اذ قودعنا سليمان بفرع بشامة عسقى البشام
ومثل ذلك جرير :

مقى كان الخيام بندي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام
ومعنى الالتفات أنه اعترض في الكلام قوله « سقيت الغيث » ولو لم
يعترض لم يكن ذلك اتفاناً وكان الكلام منتظماً وكان يقول « مقى كان الخيام
بندي طلوح أيتها الخيام » فمضى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه
يلطف كان ذلك اتفاناً . ومثله قول النابغة الجهمي :

ألا زعمت بنو سعد بأني - ألا كذبوا - كبير السن فاني
ومثله قول كثير :

لو أن الباذلين ، وأنت منهم ، رأوك تعلموا منك المطالا
ومثله قول أبي تمام :

وأنجدم من بعد اتهام داركم فيادمع أنجدي على سا كفى نجده
وكقول جرير :

طرب الحمام بندي الأراك فشاقني لا زلت في غلل وأبك ناضر
التفت الى الحمام فدعا لها ، ومثله قول حسان :

ان التي ناولتني فرددتها قنلت قنلت فهاتها لم تقتل
ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

وأجمل اذا ما كنت لا بد ما نعا وقد بنع الشيء الفتي وهو مجمل
وكقول ابن ميادة :

فلا صرمة يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن ابراهيم الخليل من قوله

(٢٩ : ١٦ - ٢٤) : « اعبدوا الله واتقوه ذاكم خبر لكم ان كنتم تعلمون .

انما تعبدون من دون الله آوثاناً ونخلقون افكا - الى قوله - فما كان جواب قومه »

وقوله عز وجل (١٤ : ٢٠-٢١) : « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز وبرزوا لله جميعا » ومثله قوله (١٠ : ٢٢) : « حق اذا كنتم في الفلك وجرين بهم يريج طيبة » الى آخر الآية . ومثله قوله (٧ : ١٧٥-١٧٦) : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - الى قوله - فأناله كمثل السكب ان نحمل عليه يلهث أو تفركه يلهث » ومثله قوله (٥ : ٣٨-٣٩) : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديها جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه »

ومنهم من لا يعد الاعتراض والرجوع من هذا الباب ، ومنهم من يفرد عنه كقول زهير :

قف بالديار التي لم يعمتها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم^(١)
و كقول الاعرابي :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ، وكلا ليس منك قليل
و كقول ابن هرمة :

ليت حظي كحظرة العين منها وكثير منها القليل المهنا
ومن الرجوع قول الفائل :

بكل تداوينا فلم 'بشف' ما بنسا على ان قرب الدار خير من البعد^(٢)
وقال الاعشى :

صرمت ولم أصرمكم وكصارم
و كقول بشار :

لى حيلة فيمن يتم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل خيلتي فيه قليله

(١) كذا في النسختين : « نعم ، وغيرها الخ » وهو أجود وعليه يتم الاستشهاد ويكن

(٢) في الخطية : « ولم تشف » بالنون الموحدة ، والذي في ديوان ابن الدمينه مطابق ما أثبتناه باليه
المنته والعمل مبني للمجهول

وقال آخر :

وما بي انتصار ان غدا الدهر ظالمي عليّ بلى ان كان من عندك النصر
وباب آخر من البديع يسمى التذييل ، وهو ضرب من التأكيد وهو ضد
ما قدمنا ذكره من الإشارة ، كقول أبي دواد :

إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب
وأخذنا الخطيئة فقال :

فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه اذا لم أنزل
و كقول جرير :

أقد كنت فيها يا فرزدق تابماً وریش الذنابي تابع للقوام
ومثله قوله عز وجل (٢٨ : ٤ - ٨) : « ان فرعون علا في الأرض وجعل
أهلها شيعا » . الى قوله : « انه كان من المفسدين وزيد أن ممن على الذين
استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين - الى قوله - كانوا خاطئين »
وباب من البديع يسمى الاستطراد فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد
الله قال أنشدني أبو بكر بن دريد قال أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة لسان بن
ثابت رضي الله تعالى عنه :

ان كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الاحبة لم يقاتل دونهم ورمى برأس طيرة وجام (١)
و كقول السموأل :
وانا لقوم لانرى القتل سبة اذا ما رأته عامر وسلول
و كقول الآخر :

خليلي من كعب أعينا أخاكا على دهره ان الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قرعة انه مخافة ان يرجى نراه حزين

(١) كذا بالاصلين : « لم يقاتل » الخ . والذي في ديوان حسان : « ترك الاحبة أن يقاتل دونهم »

هذا تحريف منه
« نداء » . كونه خطفا
أبرقة ١٣٧٣/٦/٢٧

و كقول الآخر :

فأذر قرن الشمس حتى كأننا من العي نحكي أحمد بن هشام
و كقول زهير :

ان البغيل ملوم حيث كان وا' كن الجواد على علاقه هرم
وفما كتب الى الحسن بن عبد الله قال : أخبرني محمد بن يحيى ، حدثني
محمد بن علي الأنباري ، قال : سمعت البحترى يقول : أنشدني أبو تمام لنفسه :
وساج هطل التعداد هتان على الجراء أمين غير خوان
أظمى الفصوص ولم نظماً قوائمه لجل عينك في ريان ظمان
ولو نراه مشيحاً والخصى فلق بين السنايك من مثني ووحدان
أيقنت - ان لم تنبت - أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عمان
وقل لي : ما هذا من الشعر ؟ قلت : لأدري . قل : هذا المستطرد ، أو
قل : الاستطراد ، قلت : وما معنى ذلك ؟ قل : يرى أنه يصف الفرس ويريد
هجاء عمان ، فقال : وقال البحترى :

ما ان يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حمدويه الاحول
قل : فليل البحترى : انك أخذت هذا من أبي تمام ، فقال ما يعاب علي
ان أخذ منه وأتبعه فيما يقول . ومن هذا الباب قول أبي تمام :
صب الفراق علينا صب من كتبنا عليه اسحق يوم الروح منتقما
ومنه قول السري الرفاء :

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة برمي بسهم الحين من برمي به
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد الله أو بحرا به
ونظيره من القرآن (١٦ : ٤٨ - ٤٩) : « أولم يروا الى ما خلق الله من
شيء يتغيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون والله يسجد ما في
السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » كأنه كان

المراد أن يجري بالقول الاول الى الاخبار عن ان كل شيء يسجد لله عز وجل
وان كان ابتداء الكلام في أمر خاص

ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر:

هلا سألت جموع كنه دة يوم ولوا أين أين
وكقول الآخر:

وكانت قزارة تصلى بنا فأرلى قزارة أولى لها

ونظيره من القرآن (٩٤ : ٥ - ٦) «فان مع العسر يسرا ان مع العسر
يسرا» والتكرار في قوله (١٠٩ : ١) «قل يا أيها الكافرون» وهذا فيه
معنى زائد على التكرار لانه يفيد الاخبار عن الغيب . ومن البديع عندهم ضرب
من الاستثناء^(١) كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتائب
وكقول النابغة الجعدي:

قنى كملت أخلاقه غير أنه حواد فلا يبغي من المال بقيا
قنى تم فيه مايسر صديقه على ان فيه ما يسوء الاعاديا
وكقول الآخر:

حليم اذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب
وكقول أبي تمام:

تنصل ربها من غير جرم اليك صوى النصيحة والوداد
ووجوه البديع كثيرة جدا فقتصرنا على ذكر بعضها ونهنا بذلك على
ما لم نذكر كراهة التطويل ، فليس للغرض ذكر جميع أبواب البديع
وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التي
قلناها وان ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لان

(١) بسمونه تأكيد المدح بما يشبه الذم

هذه الوجوه اذا وقع التنبیه عليها أمكن التوصل اليها بالتدرب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه العمل له وأمكنه نظمه ، والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال ، ويبين ما قلنا ان كثيرا من المحرّثين قد تصنع لآبواب الصنعة حتى حشى جميع شعره منها واجتهد ان لا يفوته بيت الا وهو يملؤه من الصنعة ، كما صنع أوتنم في لاميته :

مني أنت عن ذهلية الحى ذاهل	وصدرك منها مدة الدهر آهل
تطل طول الدمع في كل موقف	وتنثل بالصبر الديار الموائل
دوارس لم يحف الربيع ربوعها	ولا مرّ في اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها	وقد أخملت بالنور تلك الخائل
تغفين من زاد المفاة اذا اتقحي	على الحى صرف الازمة المتماحل
لهم سلف سمر العوالى وسامر	وفيههم جمال لا يفيض وجمال
لبالى أضلت العزاء وخذلت	بعثلك آرام الخدور المعائل
من الهيف لو أن الخلا خيل صيرت	لها وشحا حالت عليه الخلاخل
مهي الوحش الا ان هاتا أو انس	قنا الخط الا ان تلك ذوايل
هوى كان خلسا ان من أطيب الهوى ^(١)	هوى حلت في أقبائه وهو خامل

ومن الادبا. من عاب عليه هذه الابيات ونحوها على ما قد تكلف فيها من البدیع ، وتعمل من الصنعة ، فقال قد أذهب ماء هذا الشعر وروقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه ، وقد تعصب عليه أحمد بن عبيد الله ابن عمار وأمر ف حتى تجاوز الى الغض من محاسنه ، ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع في القبيح وهو يريد أن يبدع في الحسن كقوله في قصيدة أولها :

(١) ان هنا هي التي بمعنى « نعم »

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
فقال فيها:

لمعري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد
وكقوله

لو لم تدارك مسن المجذ مذ زمن بالجوود والبأس كان المجذ قد خرفا
فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت كقوله:
تسعون ألفا كآساد الشرى فضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب
وكقوله:

لو لم يمت بين أطراف الرماح إذا لمات ، اذ لم يمت ، من شدة الحزن
وكقوله:

خشت عليه أخت بني خشين

وكقوله:

ألا لا يمد الدهر كفاً بسيء الى مجتدى نصر فتقطع من الزند
وقال في وصف المطايا:

لو كان كلنفا عبید حاجة يوماً لزني شدقاً وجديلا
وكقوله:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوبا
فهذا وما أشبه، إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه
الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستمارة
وغيرها حتى استنقل نظمه واستوخم رصعه، وكان التكليف بارداً والتصرف
جامداً، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح
فأما البحثري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ويقل التصنع له
فاذا وقع في كلامه كان في الاكثر حسناً رشيقاً وظرفاً جميلاً وتصنعه للمطابق
كثير حسن وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة

فذلك يخرج سليماً من العيب في الاكثر وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسن
 وعود العبارات عن الغاية المقصود فشيء لا بد منه وأمر لا يحصى عنه كيف
 وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدراً في هذه الصنعة وأكبر في الطبقة
 كإبراهيم القيس وزهير النابغة والى يومه ونحن ندين بميز كلامهم^(١) وانحطاط درجة
 قولهم ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن في باب مفرد يتصور به ذو الصنعة
 ما يجب تصوره ويتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئة الله وعونه
 ثم رجع الكلام بنا الى ما قدمناه من أنه لا سبيل الى معرفة إعجاز
 القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك ان هذا الفن ليس
 فيه ما يخرج العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به
 والتصنع له ، كقول الشعر ، ورصف الخطيب ، وصناعة الرسالة ، والخلق في
 في البلاغة . وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسلم يرتقى فيه اليه ، ومثال قد
 يقع طالبه عليه . فرب انسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً ، أو يتعود أن
 يكون جميع خطابه سجعاً أو صنعة متصلة ، لا يسقط من كلامه حرف ، وقد
 يباد به ما قد تعودده ، وأنت ترى أدياء زماننا يضيفون المحاسن في جزء وكذلك
 يؤلفون أنواع البارع ثم ينظرون فيه اذا أرادوا انشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة
 فيحشون به كلامهم ، ومن كان قد تدرب وتقدم في حفظ ذلك اشتغل عن
 هذا التصنيف ولم يحتاج الى تكلف هذا التأليف ، وكان ما أشرف عليه من
 هذا الشأن باسطاً من باع كلامه ووشحاً أنواع البديع ما يحاوله من قوله . وهذا
 طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع وكل يأخذ فيه مأخذاً ويقف فيه موقفاً على قدر
 ما معه من المعرفة وبحسب ما عمده من الطبع
 فأما شأؤ نظم القرآن فليس له مثال يحتذى اليه ، ولا امام يقتدى به ، ولا
 يصح وقوع مثله اتفاقاً ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشاردة ،

(١) كذا في النسخة الخطية ، وفي المطبوعة : « كلامه » وهو خطأ

والمعنى الغد الغريب ، والثمنى الفليل العجيب ، وكما يلحق بكلامه بالوحشيات^(١) ويضاف من قوله الى الأوابد ، لان ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع فاما يتفق للشاعر في لمع من شعره ، والكاتب في قليل من رسائله ، والخطيب في بسير من خطب ، ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلاً سائراً ، ومعنى بديعاً ، ولغزاً رشيقاً وكل كلامه مملوئاً من رونقه ومائه ، ومملأ^(٢) بهجته وحسن روايته ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين ، والمتروك بين الطرفين ، ولا البارد المستقل ، والغث المستنكر : لم يبين الاعجاز في الكلام ، ولم يبين التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة نحتاج الى تفصيل ، ومبهم قد يحتاج في بعضه الى تفسير ، وسند كذا ذلك بمشيئة الله وعونه . ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه اليهم ، ان ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة وانه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحتهم ، واذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديراً . وانما لم نطلق القول اطلاقاً لاننا لا نجعل الاعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصة وواقعاً عليها ومضافاً اليها ، وان صح ان تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستشبع والتعمل المستشبع

﴿ فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ﴾

قد بينا انه لا ينبغي لمن كان لسانه غير العربية من العجم والنرك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز القرآن الا أن يعلموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد سجدوا على أن يأتوا بمثله وقرعوا على ترك الاتيان بمثله ولم يأتوا به تبيينوا أنهم عاجزون عنه ، واذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز .

(١) انظر ففي هذه الجملة قلق واضطراب

(٢) في الحظية مملأ بضم الميم الاولى وفتح الثانية

وكذلك نقول : ان من كان من أهل اللسان العربي الا أنه ليس ببلغ في الفصاحة الحد الذي ينداهي الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف اعجاز القرآن إلا بمثل ما يتنا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء

فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي اليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الحميد والردى والفصيح والبديع والناذر والبارع والغريب ، وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصبر في من النقد ما يخفى على غيره ، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ودرجته ما يخفى على غيره ، وان كان بقي مع معرفة هذا الشأن أمر آخر وربما اختلفوا فيه ، لان من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين ، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه ويسلم مأخذه ، ويسلم وجهه وينفذه ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى ، كما يختار قوم ما يفيض معناه ويقرب لفظه ويختار ما سهل على اللسان وسق الى البيان ، وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيراً فقال كان لا يمدح الرجل الا بما فيه ، وقال لعبد بنى الحسحاس حين أنشده :

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً :

أما انه لو قلت مثل هذا لاجزئك عليه ، وروي ان جريراً سئل عن أحسن الشعر فقال : قوله :

ان الشقي الذي في النار منزله والفوز فوز الذي ينجو من النار
كانه فضله لصدق معناه . ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والافراط فيه

حتى ربما قالوا : أحسن الشعر أ كذبه ، كقول النابغة :
 يقدُّ السلوقي لمضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الجباحب
 وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في اللغو والاقتصاد وفي المتانة
 والسلاسة ، ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة وألطف تعملا
 وإن يتخير الالفاظ الرشيفة للمعاني البديعة والقوافي الواقعة كذهب البحترى
 وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب :

في نظام من البلاغة ما شئتُ امرؤُ انه نظام فريد
 وبديع كأنه الزهر الضا حاك في رونق الربيع الجديد
 حزن مستعمل الكلام اختيارا ونجذب ظلمة التعقيد
 وركب اللفظ القريب قادرا من به غاية المراد البعيد
 ويرون أن من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا ولم يروه شاعرا ولا
 مصيبا ، وفيما كتب الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري قال : أخبرني محمد
 ابن يحيى ، قال : أخبرني عبد الله بن الحسن قال : قال لي البحترى : دعاني هلى
 ابن الجهم فضيت اليه فافضنا في اشعار الحداثين الى ان ذكرنا شعر أشجع فقال
 لي : انه بخلى ، وأعادها مرات ، ولم أفهمها ، وانفت ان أسأله عن معناها . فلما
 انصرفت أفكرت في الكلمة ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الايات
 مفسولة ليس فيها بيت رائع واذا هو يريد هذا بعينه أن يعمل الايات فلا يصيب
 فيها بيت نادر ، كما أن الراعي اذا رمى برشقة فلم يصب بشيء قيل : قد أخلى .
 قال : وكان على بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر

وقوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام الذي يجمع الغريب
 والمعاني مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والاصمعي ، ومنهم من يختار
 الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات ، وقيل انه اختار
 ذلك لميله الى ذلك الفن ، وذكر الحسن بن عبد الله انه أخبره بعض الكتاب

عن علي بن العباس قال : حضرت مع البحترى مجلس عبید الله بن عبد الله بن طاهر : وقد سأل البحترى عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ، فقال البحترى : أبو نواس أشعر ، فقال عبید الله : ان أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما ، فقال البحترى : ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله انما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته ، فقال له عبد الله : وریت بك زنادى يا أبا عبادة وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال : جرير أشعرهما ، فقليل له بماذا : فقال لان جريرا يشتد اذا شاء وليس كذلك الفرزدق لانه يشتد ابدأ ، فقليل له : فان نونس وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير ، فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله ، وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق ولقد ماتت النوار امرأته فناح عليها بقول جرير :

لولا الحياء لمادني استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وروي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق : مالك لا تنسب كما ينسب
جرير ؟ فغاب حولا ثم جاء فأشدد :

يا أخت ناجية بن سامة انني أخشى عليك بني ان طلبوا دمي^(١)
والاعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب
الحاسة ، وما اختاره من الوحشيات ، وذلك أنه تنكر المستنكر الوحشي والمبتذل
الدمي . وأتى بالواسطة . وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ، ولا يعدل به
غرض يخص . لان الذين اختاروا الغريب قائما اختاروه لغرض لهم في تفسير
ما يشتبه على غيرهم ، واظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ، ولم يكن
قصدهم جيد الاشعار شي . يرجع اليها في أنفسها . ويبين هذا أن الكلام

(١) كذا النسخة الخطية : « يا أخت ناجية » بالياء للشاة من تحت ، وفي المطبوعة « ناجية » بالموحدة

موضوع للإبانة عن الاغراض التي في النفس ، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى دلالة على المراد ، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلق على الأذن ، ومستكره المورد على النفس ، حتى يتأني بقرائته في اللفظ عن الاهتمام ، أو يمتنع بتدوين معناه عن الإبانة ، ويجب أن يتمك ما كان عليه لفظ مبتذل العبارة ، ريك المعنى ، صغافى الوضع ، محتلب التأسيس على غير أصل ممد ، ولا طريق موطد ، وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع ، لذلك وضع أصلها على [أن^(١)] أكثرها بالحروف المتملة ، فقد أهملوا الالفاظ المستكره في نظمها ، وأسقطوها من كلامهم ، فجرى لسانهم على الأعدل ، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي لانهم بدءوا بحرف وسكنوا على آخر وجعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء والانهاء على ذلك والثنائي أقل وكذلك الرباعي والخامسى أقل ، ولو كان كاه ثنائيا لتكررت الحروف ، ولو كان كاه رباعيا أو خماسيا لكثر الكلمات ؛ وكذلك بنى أمر الحروف التي ابتدئ بها السور على هذا ، فأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف ، وما هو أربعة أحرف سورتان ، وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان ، فأما ما بدى بحرف واحد فقد اختلفوا فيه : فمنهم من لم يجعل ذلك حرفا وإنما جعله فعلا واسما لشيء خاص ، ومن جعل ذلك حرفا قل أراد أن يحقق الحروف مفردا ومنظوما ، ولضيق ما سوى كلام العرب أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر في بعض الالسنه الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا ، كمنحو تكرر الطاء والسين في لسان يوفان ، وكنحو الحروف السكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك ، ولذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر في تلك الالسنه على الاعايرض التي تمكن في اللغة العربية ، والعربية أشدها تمكنا وأشرفها نصرفا وأعدلها ؛ ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن ، وعلق بها الاعجاز ، وصارت دلالة

في النبوة ، وإذا كان الكلام انما يفيد الالبانة عن الاغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل اليها بأنفسها وهي محتاجة الى ما يعبر عنها فما كان أقرب في تصويرها وأظهر في كشفها لفهم الغائب عنها - وكان مع ذلك أحكم في الالبانة عن المراد وأشد تحقيقا في الايضاح عن الطلب وأعجب في وضعه وأرشق في قصره وأبرع في نظمه - كان أولى وأحق بأن يكون شريفاً وقد شبهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه الى رشاقة وصحة ^(١) ولطف حتى يجوز الفضيلة ويجمع السكال ؛ وشبهوا الخط والنطق بالتصوير ؛ وقد أجمعوا أن من أحقق المصورين من صور تلك الباكى المتضاحك والباكى الحزين والضاحك المتباكى والضاحك المستبشر ونكا أنه يحتاج الى لطف به في تصوير هذه الامثلة فكذلك يحتاج الى لطف في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير ، وفي جملة الكلام الى ^(٢) ما تقصر عبارته وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقاً للآخر ، ثم ينقسم ما يقع وفقاً الى ^(٣) انه قد يفيدها على تفصيل ؛ وكل واحد منهما قد ينقسم الى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعاً شريفاً وغبياً لطيفاً ، وقد يكون كل واحد منهما مستجبلاً متكلفاً ومصنوعاً متعسفاً ، وقد يكون واحد منهما حسناً رشيقاً وبهيجاً نصيراً ، وقد يتفق أحد الامرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نصارة في واحد منهما ، انما يميز من يميز ويعرف من يعرف ، والحكم في ذلك صعب شديد والفضل فيه شارب بعيد ، وقد قل من يميز أصناف الكلام ، فقد حكى عن طبقة أبي عبيدة وخلف الاحمر وغيرهم في زمانهم انهم قالوا ذهب من يعرف قد الشعر ، وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار ، وما يجب أن يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه ،

(١) في الخطبة يباشر يتبع لكلمة واحدة

(٢) كذا في النسختين ولعل كلمة (الى) زيادة عما يقتضيه المراد من العبارة

(٣) في هذه العبارة اضطرب جعل فهم المراد بعيداً

وكلام المفتدر نط وكلام المتوسع باب ، وكلام المطبوع له طريق ، وكلام
المتكلف له منهاج ، والكلام المصنوع المطبوع له باب ، ومتى تقدم الانسان
في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ولم تشبهه عنده هذه الطرق ، فهو
يميز قدر كل متكلم بكلامه ، وقدر كل كلام في نفسه ، ويحلله محله ويمتد فيه
ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم ، وان كان المتكلم بجود في شيء
دون شيء عرف ذلك منه ، وان كان يعم احسانه عرف . ألا ترى أن منهم
من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يجود في الهجو وحده ، ومنهم من يجود
في المدح والسخف ، ومنهم من يجود في الاوصاف ، والعالم لا يشذ عنه مراتب
هؤلاء . ولا يذهب عليه اقدارهم ، حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد
معدودة فأنشد غيرها من شعره لم يشك أن ذلك من نسجه ولم يرتب في أنه
من نظمه ، كما أنه اذا عرف خط رجل لم يشبهه عليه خطه حيث رآه من بين
الخطوط المختلفة ، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره ، وكذلك
أمر الخطب ، فان اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطرفين ، وتماثل الصورتين
كما قد يشبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه
التصنع ، ويقصد فيه التسهل ، ويسلك الطريقة السكتانية ، ويتوجه في تقريب
الالفاظ وترك تعويض المعاني ، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري والفاظه ،
ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس ، ولا نسج ابن الرومي
من نسج البحتري ، وينبج ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبدع رواقه
وبهجة كلامه ، الا فيما يسترسل فيه فيشبهه شعر ابن الرومي ، وبحر كه ما شعر
أبي نواس من الخلاوة والرقعة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم
وكذلك يميز بين شعر الاعشى في التصرف ، وبين شعر امرئ القيس ،
وبين شعر النابغة وزهير ، وبين شعر جرير والاخلط والبعث والغزدق ، وكل
له منهج معروف ، وطريق مألوف ، ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل

عبد الحميد وطبقته ، وبين طبقة من بعده ، حتى أنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره . ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل ، وتقدم في شأوها ، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلس لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجاً ، فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الأصل ، وبرع في ذلك باقتداره ، وتقدم ، بحذقه ، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره ، وإن كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الأطراف ، وتشذ النواحي وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصره ، وتقداني رسائل كتاب دهر ، حتى تشبه استنباطها شديداً ، وتماثل تماثلاً قريباً ، فيغمض الفصل . وقد يقشأ كل الفرع والأصل ، وذلك فيما لا يتعذر ادراك أمده ، ولا يتصعب طلاب شأوه ، ولا يتمنم بلوغ غايته والوصول إلى نهايته ، لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان إذا تفاضلوا ^(١) وتفاوتوا في مضمار فصل قريب وأمر يسير ، وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق اللفاظ وسارق المعاني ، ولا من يخترعها ولا من يلم بها ، ولا من يجاهر بالاختصاص يكتم به ، ولا من يخترع الكلام اختراعاً وينتدعه ابتداءً ممن يروى فيه ويحيل الفكر في تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له ما يريد وحتى يتكرر نظره فيه

قال أبو عبيدة : سمعت أبا عمرو يقول : زهير والخطيب وأشباههما عبيد الشعر لأنهم تفحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان زهير يسمى كبر شعره (الحوليات المنقحة) وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كموب قناته حتى يقبم ثقافه مُنَادِها
وكقول سويد بن كراع :

(١) في الخطبة ياض بتبع لكلمة واحدة

أُيِّيت بأبواب القوافي كأنما أصادى بها سرباً من الوحش نزعا
ومهم من يُعرف بالبديهة وحدة الخاطر ونفاذ الطبع وسرعة النظم ، يرتجل
القول ارتجالاً ويطبعه عفواً صفواً فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم
وجاهدوا خواطرهم ، وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوي واللفظ الملوحي ، كما
لا يخفى عليهم الكلام العامي واللفظ السوقي ، ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلاً ،
ويعطونه كيف تصرف حقوقه ، ويمرّون مراتبه ، فلا يخفى عليهم ما يختص به
كل فاضل تقدّم في وجه من وجوه النظم من الوجه الذي لا يشار كه فيه غيره
ولا يسامه سواه ، إلا تراهم وصفوا زهيراً بأنه أمدحهم وأشدهم أثر شعره قاله أبو
عبيدة ، وروى أن الفرزدق انتحل بيتاً من شعر جرير وقال : هذا يشبه
شعري فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن
وهذا كما يعلم البزازون وهذا الديباج عمل بقسّتر وهذا لم يعمل بقسّتر ، وإن هذا
من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان ، حتى لا يخفى عليه وإن
كان قد يخفى على غيره

ثم أنهم يعلمون أيضاً من له سمت بنفسه ورفعت برأسه ، ومن يقتدي في
الالفاظ أو في المعاني أو فيهما بغيره ، ويجعل سواه قدوة له ، ومن يلم في الأحوال
بمذهب غيره ويأبى في الاحيان بمخترعه ^(١) وهذه أمور ممهدة عند العلماء
وأسياب معروفة عند الأدباء ، وكما يقولون إن البحرني بغير على أي تمام اغارة
ويأخذ منه صريحاً وإشارة ، ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ
من غيره ، ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه ، وكما كان أبو تمام يلم بأبي
نواس ومسلم ، وكما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ويؤلف
ما يقوله من فرق شتى ، وما الذي نفع المتنبي جحوده الأخذ وإنكاره معرفة

(١) لفظ (بمخترعه) ساقط من الخطبة ، وفي مكانه يأنس يتسع له ، وفيها بدل يأتي (ينزلوا)

الطائفتين وأهل الصنعة يدلون على كل حرف أخذ منهما جهازا أو ألم بهما فيه سرارا ، وأما ما لم يأخذ عن الغير ولكن سلك النمط وراعى النهج فهم يعرفونه ويقولون هذا أشبه به من النمرة بالنمرة وأقرب اليه من الماء الى الماء وليس بينهما الا كما بين الليلة واللييلة ، فاذا تباينا وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه وسلك في غير جانبه قيل بينهما ما بين السماء والارض وما بين النجم والنون وما بين المشرق والمغرب

وانما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله ، وغامضه وجليله ، وقريبه وبعيده ، ومعوجه ومستقيمه . فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متداول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ويفوت مواقع قدرهم ، واذا اشتبه ذلك فانما يشبهه على ناقص في الصنعة أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويدبرونه بينهم ولا يتجاوزونه ، فلكلامهم سبل مضبوطة وطرق معروفة محصورة ، وهذا كما يشبهه على من يدعي الشعر من أهل زماننا والعلم بهذا الشأن ، فيدعي أنه أشعر من البحري ، ويتوهم أنه أدق مسلكا من أبي نواس ، وأحسن طريقا من مسلم ، وأنت تعلم أنها متباعدان وتحقق أنها لا يجتمعان ، وأهل أحدهما انما يلحظ عبارة صاحبه ، ويظالم ضياء نجمه ، ويراعي حفاف جناحه ، وهو راكد في موضعه ، ولا يضر البحري ظنه ، ولا يلحقه بشأوه وهمه

فان اشتبه على منادب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، انما يخبر عن تقصه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافته فهمه وركاكة عقله وانما قد آتينا ما قد آمناء في هذا الفصل لتعرف ان ما ادعينا من معرفة البليغ بملو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمر لا يجوز غيره ولا يحتمل

سواه ولا يشبهه على ذي بصيرة ولا يخيل عند أخى معرفة ، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المحضرين وبين المحدثين ، ويميز بين من يجري على شاكفة طبعه وغيرة نفسه وبين من يشتغل بالتكاف والتصنع ، وبين من يصير التكاف له كالمطبوع وبين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع ، هيهات هيهات هذا امر - وان دق - فله قوم يقتلونه علماً ، وأهل يحيطون به فهما ، ويعرفونه اليك ان شئت ، ويصورونه لديك ان أردت ويجلونه على خواطرك ان احببت ، ويمرضونه لفطنتك ان حاولت ، وقد قال القائل :

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا وللدواوين كتاب وحساب
ولكل عمل رجال ولكل صنعة ناس ، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ، ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة ، وذهب من يحصل في هذا الشأن الا قليلاً ، فان كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات والتحقيق بمجاري البلاغات ، فانما يكفيك التأمل ويفنيك التصور ، وان كنت في الصنعة مرمداً وفي المعرفة بها متوسطاً ، فلا بد لك من التقليد ولا غنى بك عن التسليم أن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها والشاذي فيها كالبائن منها فان أراد أن يقرب عليه أمراً ويفسح له طريقاً ويفتح له باباً ليعرف به اعجاز القرآن فانا نضع بين يديه الامثلة ونعرض عليه الاساليب ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر ونحضر له من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله ويراعيه حق مراعاته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالعة عن الالهية الجامع بين الحكم والحكم والاختبار عن الغيوب والفائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين والمعاني المحتركة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالالفاظ الشريفة

على تفننها وتصرفها . ونعمد الى شيء من الشعر الجمع عليه فبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته انكشف له واتضح ونبت ما وصفناه لديه ووضح وليعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة

وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن الفارسي سئل فقيل له : ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل . وسئل اليوناني عنها فقال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وسئل الرومي عنها فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة ، وسئل الهندي عنها فقال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وقال مرة : التماس حسن الموقع والمعرفة بإساحات القول وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غرض وشرذ من اللفظ وتعذر ، وزينته ان تكون الشائيل موزونة والالفاظ معدلة واللهجة نقية وأن لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيب وبصفيها كل التصفية ويهديها بغاية التهذيب ، وأما البراعة ففيا يذكر أهل اللغة الخلق بطريقة الكلام وتجويده ، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة . وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى ، وقد قيل : معناها الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جليلة ومعان نقية بهية ، والذي يصور عندك ما ضمنا تصويره وبحصل عندك معرفته اذا كنت في صنعة الادب متوسطا وفي علم العربية متبيننا ان تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فان تبين لك الفصل ووقعت على جليلة الامر وحقيقة الفرق فقد

أدركت الغرض وصادفت المقصد ان لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد وعلمت انك من جملة العامة وان سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان

﴿ خطبة للنبي ﷺ ﴾

روى طلحة بن عبيد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول : ه ألا أيها الناس ، توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ، وبادروا الاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتؤجروا وتنصروا ، واعلموا ان الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامى هذا في عامي هذا في شهري هذا الى يوم القيامة حباتى ومن بعد موتى . فمن تركها وله امام فلا جرم الله له شمله . ولا بارك له في أمره ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا صدقة له ، ألا ولا بر له ألا ولا يؤم اعرابي مهاجرا ، ألا ولا يؤم قاجر مؤمناً إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه .

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

أيها الناس ، ان لكم معالم فانتبهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتبهوا الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه . فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار .

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

ان الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،

من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينته الله في قلبه ، وأدخله في الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أصدق الحديث وأبلغه . أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا ننموا كلام الله وذكره ، ولا تقسوا عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، اتقوا الله حق تقاته وصدقوا صالحو ما تعملون بأفواهكم ، ونحايوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

﴿ خطبة له ﷺ في أيام الفرياق ﴾

قال بعد حمد الله : أيها الناس ، هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا : في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام . قال ألا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الى يوم تلقونه . ثم قال : اسمعوا مني تمشوا ، ألا لا تظالموا (ثلاثاً) . ألا انه لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب نفس منه . ألا ان كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذبة . ألا وان أول دم وضع دم ريعة بن الحارث بن عبد المطلب (كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل) . ألا وان كل ربا كان في الجاهلية موضوع ، ألا وان الله تعالى قضى ان أول ربا يوضع ربا عمى العباس ، لكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا وان الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون ولكن في التحريش بينكم ، اتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان لا يملكن لا نفسهن شيئاً ، وان لهن عليكم حقاً ولكن عليهن حق ، ألا يوطنن فرشكم أحداً غيركم ، فان خفن من شوهرهن فعتوهن

وامجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، فانما اخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ثم بسط يده فقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أبلغ من سامع

﴿ خطبته ﷺ يوم فتح مكة ﴾

وقف على باب السكبة ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سداة (١) البيت وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ العمدة بالسوط والعصا فيه الدية مغلفة منها أربعون خلفه في بطونها أولادها . يا معشر قریش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ، ثم تلا هذه الآية (٤٩ : ١٣) : يا أيها الناس اذا خلقناكم من ذكر وأنثى ، الآية . يا معشر قریش - أو يا أهل مكة - ما ترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ ، قال : فاذهبوا فاتم الطلقاء .

﴿ خطبته ﷺ بالخييف ﴾

[روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخييف من منى فقال] (٢) : نصر الله عبداً مسموماً مقاتلي فوجها ثم أداها الى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه . ثلاث لا يفل عليها قلب المؤمن : اخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم الجماعة ان دعوتهم مكون من ورائه ، ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كان همه الدنيا ففرق الله أمره وجعل فقره بين

(١) في الخطبة ياء ضم يتسم للكلمة في مكان (سداة)

(٢) هذه العبارة كلها ليست بالخطبة

عينيه ولم يأت من الدنيا الا ما كتب له

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

رواها أبو سعيد الخدري رضى الله عنه

خطب بعد العصر فقال : ألا ان الدنيا خضرة حلوة ، ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا للنساء . ألا لا ينعمن رجلا بخافة الناس أن يقول الحق اذا علمه . قال : ولم يزل بخطب حتى لم يبق من الشمس الاحمر على أطراف السعف ؛ فقال : انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى .

﴿ كتاب النبي ﷺ الى ملك فارس ﴾

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم

﴿ كتاب له ﷺ الى النجاشي ﴾

من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة : سلم أنت فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى فحملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم [من طين] ^(١) بيده ونفخه . واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني واني أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي . والسلام على من اتبع الهدى

(١) هذه الكلمة ليست بالنسخة الخطية

﴿ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية ﴾

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ﷺ سهيل بن عمرو : اصطلمحا على وضع الحرب عن الناس عشرين سنة بأمن فيه الناس ، ويكف فيه بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله ﷺ بغير إذن وليه ردّه عليهم . ومن جاء قريشاً من مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا اغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، وأنتك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فإذا كان عاماً قابلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقت بها ثلاثاً ، وإن معك سلاح الراكب والسيوف في المركب فلا تدخلها بغير هذا

ولا أطول عليك وأقتصر على ما ألقبته اليك فإن كان لك في السنعة حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الأدب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وإن قل ذلك السهم أو تقص ذلك النصيب ، فما أحسب أنه يشبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ويتساقط اليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً ، وأمداً مديداً ، وميداناً واسعاً ، ومكاناً شامعاً

فإن قلت لعله أن يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبئه ، فتثبت في نفسك وأرجع الى عقلك واجمع لبك ، وتيقن أن الخطب يحشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ، ولا يتجاوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل الى الملوك مما يجمع لها الكتاب جواميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الاخلال ؟ وكيف يتعرض

التفريط ؟ فستعلم لاحالة أن نظم القرآن من الامر الالهي ، وان كلام النبي ﷺ من الامر النبوي

فاذا أردت زيادة في التبيين ، وتقدماً في التعرف ، واشرافاً على الجلية ، وفوراً بحكم القضية ، فتأمل - هداك الله - ما نلسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء ، لتعلم ان نسجها ونسج ما قلنا من خطب النبي ﷺ واحد ، وسبكها سبك غير مختلف ، وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشعراء ، وذلك أمر له مقدار معروف ، وحد - ينتمي اليه - مضبوط ، فاذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج ، ولجلته طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت : - نظرت الى نظم القرآن نظرة أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، فتراعى بُعد موقعه ، وعالي محله وموضعه ، وحكمت بواجب من اليقين ، وثلج الصدر بأصل الدين

﴿ خطبة لابي بكر الصديق رضي الله عنه ﴾

قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فاني وليت أمركم ، ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ وعلنا فعلنا . واعلموا ان أكيس الكيس التقى ، وان أحق الحق الفجور ، وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وان أضعفكم عندي لا تقوي حتى آخذ منه الحق . أبها الناس ، انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان أحسنت فأعينوني ، وان زغت فقوموني

﴿ عهد لأبي بكر الصديق الى عمر رضي الله عنهما ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر ، انى استخافت عليكم عمر بن الخطاب ، فان برّ وعدك فذاك ظني به

ورأيي فيه ، وإن جار و بدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت لكم ، ولكل
امريء ما اكنسب من الائم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون
وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال : دخلت على أبي
بكر الصديق رضي الله عنه في علة التي مات فيها فقلت : أراك بارئاً يا خليفة
رسول الله . فقال : أما أبي على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يامعشر
المهاجرين أشد علي من وجعي . اني وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم
ورم أفنه أن يكون له الامر من دونه ، والله لنتخذن نضائد الدياج ومستورا لحرير
ولتأمن النوم على الصوف الاذربي كما يأمن أحدكم النوم على حاك السعدان .
والذي نفسي بيده لان يقدم أحدكم فتضرب رقبتة في غير حد خير له من أن
يخوض غمرات الدنيا ، ياهادي الطريق جزت (١) ، إنما هو - والله - الفجر أو
البحر . قال : فقلت خفض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ فإن هذا يهبطك
الى ما بك ، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً لا تأسي على شيء . فالتك من أمر الدنيا ،
ولقد تخليت بالامر وحدك فما رأيت الا خيراً

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلنا ، منها قصة السقيفة

﴿ نسخة كتاب ﴾

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب رضي
الله عنهم :

سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فانا عهدناك
وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها ،
يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والضيع والكل حصته من العدل
فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، فانا نحمدك يوماً نعلم فيه الوجوه ، ونحجب فيه

(١) في النسختين جزت بالزاي وفي غير هذا الكتاب جزت بالراء . المهمة وهذا الصواب كما جاءني من عدة

المبرد (٥٥/١) بشرط المصنف ، وتاريخ ابن جرير (٥٤/١) و« العقد الفريد » لابن عبد ربه (٢٦٧/١) . وكتب

على نسخة في ١٤/١ شهر شوال ١٢٧٥ .

القلوب ، وانا كنا نتحدث ان هذه الامة ترجع ^(١) في آخر زمانها أن يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك . والسلام
فكتب اليها :

من عمر بن الخطاب ، الى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل :
سلام عليكم ، فاني أحمد اليكما الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما اني وليت أمر هذه الامة أحمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبنا ان انظر كيف انت يا عمر عند ذلك ، وانه لا حول ولا قوة لغير عند ذلك الا بالله . وكتبنا تحذرائي ما حدثت به الامم قبلنا ، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بأجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة او النار ، ثم توفي كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب . وكتبنا تزعمان ان امر هذه الامة يرجع ^(١) في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستم بذلك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ، ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبنا تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما وانما كتبنا نصيحة لي ، وقد صدقتكما فتعهداني منكما بكتاب ولا غنى بي عنكما

✽ عهد من عهد عمر رضي الله عنه ✽

بسم الله الرحمن الرحيم • من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس : سلام عليك . أما بعد ، فان الاقتضاء فريضة محكمة ، وسنة

(١) في الخطبة يرجع

(٢) في الخطبة ترجع

متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجملتك حتى لا يطعم شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف ^(١) من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا ينعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ، ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجأج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشياء والامثال وقس الامور عند ذلك وأعمد الى أشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ^(٢) ينتهي اليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية فانه أنفي للشك وأجلى للمعنى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجر با عليه شهادة زور أو ظنيئا في ولا . أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالايمان والبيئات ، واياك والقلوب والضجر والتأذي بالخصوم والتشكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلف للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بشواب الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائنه رحمته ، والسلام

ولعمري رضي الله عنه خطب مشهورة مدكورة في التاريخ لم نقلها اختصارا

❦ ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه ❦

خطبة له ^(٣) رضي الله عنه

قال : ان لكل شيء آفة ، وان لكل نعمة عاهة ، في هذا الدين عيايون ظنانون ، يظهرون لكم ما يحبون ، ويسرون ما تكرهون ، يقولون لكم

(١) في الخطبة (شريف) وهو غير ما في كتب الادب

(٢) في النسخة (امراً) وفي غير هذا الكتاب (امداً)

(٣) في الخطبة لثمان

وتقولون ، طعام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق أحب مواردكم اليهم للنازح ،
لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما تقيم على ، ولكنه وقسمكم وقمعكم وزجركم
زجر النعام المحزومة . والله اني لأقرب ناصرا ، وأعز نفرا ، وأقن (ان قلت هلم)
أن نجاب دعوتي من عمر . هل تفقدون من حقوقكم شيئا فمالى لأفعل في
الحق ما أشاء ، اذا فله كنت اماما ؟

﴿ كتابه الى علي حين حصر - رضى الله عنهما ﴾

أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبي ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطعم في من لا
يدفع عن نفسه . فاذا اتاك كتابي هذا فأقبل الى علي كنت أم لي
فان كنت مأكولا فكن خيرا كل والا فأدركني ولما أمزق
﴿ ومن كلام علي رضى الله عنه ﴾ قل لما قبض أبو بكر رضى الله عنه
ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي ﷺ وجاء علي بالكيا مسترجعا وهو
يقول : اليوم انقطعت خلافة النبي .

حتى وقف علي باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال :
رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله ﷺ وأنت وثقته وموضع سره ،
كنت أول القوم اسلاما ، وأخلصهم ايمانا ، وأشدتهم بقينا ، وأخوفهم لله ،
وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأيمانهم (١) على الاسلام ،
وآمنهم على اصحابه . أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ،
وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله ﷺ سننا وهديا ورحمة
وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده ، جزاك الله عن

(١) كنا في الخطبة (وإيمانهم) وفي المطبوعة (وإيمانهم)

الاسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس فمهاك الله في تنزيله صديقا ، فقال : والذي جاء بالصدق وصدق به . واسيته حين بخلوا وقمت معه عند المسكاره حين عنه قعدوا وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه في الهجرة و خليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس قهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالامر حين فشلوا ، ونظقت حين تبعبعوا . مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطلقا ، وأطوهم صمتا ، وأبلغهم قولا ، وأكثرم رأيا ، واشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالامور ، وأشرفهم عملا . كنت للدين يعسوبا أولا حين نفر عنه الناس وآخرآ حين اقبلوا ، وكنت للمؤمنين أبآ رحيا اذ صاروا عليك عيالا فحملت اقبال ما ضعفوا ، ورعيت ما اهلوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت اذ خنعوا ، وعلوت اذ هلموا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدم برأيك فظفروا ونالوك مالم يحسبوا ، وكنت كما قال رسول الله ﷺ آمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا في بدنك ، قويا في أمر الله متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله جليلا في أعين الناس ، كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لاحد مطمع ، ولا لخلق عندك هواة ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس اليك أطوعهم لله . شأنك الحق والصدق والرفق . قولك حكم ^(١) ، وأمرك ^(٢) حزم ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ،

(١) في الخطبة في المكاين ياض يتبع لكلمة واحدة وفيها واو قبل (حزم) عما يدل على ان الحذف في الموضين لكلمة في معنى حكم وحزم

واعتمد بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، واتعبت من بعدك اعداءا شديدا ، وفزت بالجد فوزا ، مبينا لجلالت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء وهدت مصيبتك الالام فاننا لله وانا اليه راجعون ، رضيتم عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فوالله ان يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمنلك أبدأ فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمتنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك وسكت الناس حتى انتفى كلامه . ثم بكوا ، حتى علت أصواتهم

﴿ خطبة أخرى لعل رضي الله عنه ﴾

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بoudاع ، وان الآخرة قد اقبلت وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وانكم في أيام مهل ومن ورائه أجل . أخلص في أيام أملة فقد فاز ، ومن قصر في أيام أملة قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أملة ، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . ألا واني لم ار كالجنة تام طالبيها ، ولا كالنار نام هاربيها . ألا وانه من لم ينفعه الحق يضربه الباطل ومن لم يستقم (١) به الهدى يجربه الضلال . ألا وانكم قد أمرتم بالظن ودلتم على الزاد ، ألا وان أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الامل

﴿ وخطب ﴾ فقال بعد حمد الله : أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو ، ماديها التي تحسنت اليه بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر اليه ، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالأخر الذي ظفر به من الآخرة من سهمته

﴿ وكتب على رضي الله عنه الى عبدالله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة ﴾

أما بعد ، فان المرء يسر بدرك مالم يكن ليحرمه ، ويسوءه فوت مالم

(١) في الخطبة ومن لا يستقيم

يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطلق ، وليكن أسفك (١) فيها فرطت فيه من ذلك ، وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تمكث عليه جزءا ، وما نلتها فلا تنعم به فرحا ، وليكن همك لما بعد الموت

﴿ كلام لابن عباس رضي الله عنه ﴾

قل عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحسكة ؟ قال : منعه - والله - من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ناقضا لما أبرم ، ومبرما لما نقض ، أسف إذا طار ، وأطير إذا أسف . ولكن مضى قدر وبقي أسف ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لا مير المؤمنين من الأولى

﴿ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴾

أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق (٢) العرا كلمة التقوى . خير الملل ملّة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة النبي ﷺ . خير الأمور أوساؤها ، وشر الأمور محدثاتها . ما قل وكفى خير مما أكثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما ألقى في القلب اليقين . الحمر جماع الأثم ، الذئب جباله الشيطان ، الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة ، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكّر الله إلا هجرا . أعظم الخطايا اللسان الكدوب ، سباب المؤمن فسق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية . من يتألم على الله يكذبه ، من يغفر يغفر له ، مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عني عنه ، الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره ، الأمور بعواقبها ، ملاك العمل خواتيمه ، أشرف الموت الشهادة ، من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره .

(١) في الخطبة ياض يسمع لكلمة مكان (أسفك)

(٢) كذا في الخطبة . وفي المطبوعة (واصدق)

﴿خطبة لماوية بن أبي سفيان رضي الله عنه﴾

قال الراوي : لما حضرته الوفاة قال لمولى له : من الباب ؟ فقال : نفر من قريش يقبشرون بموتك ! فقال : ويحك ولم ؟ ثم أذن للناس ، فحمد الله فأوجز ؛ ثم قال : أيها الناس ، أنا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ؛ بعد فيه المحسن مسيئنا ، وزداد الظالم فيه عتوا ، لا نفتنع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف من قارعة حتى نحل بنا ، فالتاس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلال حده ونضبض وفوه ، ومنهم المسلط ^(١) سيفه والمجلب برجله والمعلن ^(٢) بشره ، قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يقرعه ، وبش المتجر أن تراها لنفسك ثمنا ومما لك عند الله عوضا ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للامانة ، واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ، ومنهم من أقعده عن الملك ضئولة في نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرته الحال فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهاد ، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى . وبقي رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شديد ناد ، وخائف متقمع ، وساكت مكوم ، وداع مخلص ، ووجع ثكلان ، قد أخلتهم النقية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر أجاج ، أفواههم دامية ، وقلوبهم قريجة ، قد وعظوا حتى ملوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قتلوا ، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حقاية القرظ وقراضة الجلم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فرفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

(١) كذا الخطبة وهو أحسن . وفي المطبوعة (ومنهم من الصلت)

(٢) في الخطبة « الملق » وما انتباه وفقا للنسخة المطبوعة أحسن

﴿ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ﴾

أيها الناس : انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمرى
 لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس انه
 من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأتيه . فأجملوا في الطلب

﴿ خطبة للحجاج بن يوسف ﴾

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل العراق ، ويا أهل الشقاق والنفاق ،
 ومساوى ، الاخلاق ، وبني الكيكة وعبيد العصا وأولاد الاماء ، والفقع
 بالقرقر ، اني سمعت تكبيرا لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان ، وانما مثلي
 ومثلكم ما قاله ابن براءة الهمداني :

و كنت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم
 متى نجمع القلب الذي وصار ما وانما حيا تجتنبك المظالم
 أما والله لا تفرع عصا عصا الا جعلتها (١) كأمس الدابر

﴿ خطبة لقس بن ساعدة الايادي ﴾

أخبرني محمد بن علي الانصاري بن محمد بن عامر ، قال : حدثنا علي بن
 ابراهيم ، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمري ، قال : حدثنا
 الانصاري علي بن محمد الحنظلي من ولد حنظلة الغسيل ، حدثنا جعفر بن محمد ،
 عن محمد بن حسان ، عن محمد بن حجاج اللخمي ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن
 ابن عباس ، قال : لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ قال : أيكم
 يعرف قس بن ساعدة قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله ، قال : لست أنساه بمكاف
 اذ وقف على بعير له أحر فقال : أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا

(١) في الخطبة (جملها)

معهم فعوا واذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . أما بعد ، فإن في السماء نظيراً ، وإن في الأرض لعبيراً . مهاد موضع ، وسقف مرفوع ، ونجوم نور ، وبحار لا تغور . أقسم بالله قس قسماً حقاً لا كاذباً فيه ولا آتائين كان في الأرض رضا ليكونن سخط ، إن الله تعالى ديننا هو أحب اليه من دينكم الذي أنتم عليه ، وقد أناكم أوانه ولحقكم مدته . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا ففاموا ثم قال رسول الله ﷺ : أيكم يروى شعره ؟ فأنشدوه :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصغر والأكبر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقين غير
أيقنت أني لأحيا له حيث صار القوم صائر

أخبرني الحسن بن عبد الله بن سعيد ، حدثنا علي بن الحسين بن اسماعيل ، حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا عبد الله بن الضحاك ، عن هشام ، عن أبيه أن وفدا من أباد قدموا على رسول الله ﷺ ، فسألهم عن حل قس بن ساعدة ، فقالوا : قال قس :

ياناعى الموت والاموات في جدث
عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم
كأينبه من نوماته الصعق
منهم عرأة ومنهم في ثيابهم
منها الجديد ومنها الاورق انخلق

مطرونبات ، وآباء وامهات ، وذاهب وآت ، وآيات في اثر آيات ، واموات بعد اموات . ضوء وظلام ، وليال وايام ، وغنى وفقير ، وشقي وسعيد ، ومحسن ومسيء . أين الارباب الفعلة . ليصلحن كل عامل عمله . كلا بل هو الله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، واليه المآب غذا .

أما بعد يا معشر أبادي، ابن نود وعادي، وابن الآباء والأجداد، ابن الحسن الذي لم يشكر، ابن الظالم الذي لم ينقم؟ كلا ورب السكينة ليعودن مابداً، ولئن ذهب يوم ليعودن يوم

قال: وهو قس بن ساعدة بن خذاق بن ذهل بن أباد بن نزار، أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من تكلم بأما بعد

﴿ خطبة لابي طالب ﴾

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع اسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكم على الناس. وإن محمد بن عبد الله بن أخي لا يوازن به فقه من قريش إلا رجح به بركة وفضلاً وعدلاً ومجداً ونبلاً. وإن كان في المال مقلاً فإن المال عارية مسترجعة وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فعلي

قد نسخت لك جملاً من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن، فتأمل ذلك، وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان والسنن، والفصاحة واللفظ، والانفاظ الممتنوعة، والمحاطبات الدائرة بينهم، والأمثال المنقولة عنهم، ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل في ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الأدباء، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة، فإن خيل اليك أو شبه عليك، وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن لأن الشعر أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل وأدق مسلكاً من جميع أصناف المحاورات. ولذلك قالوا له عليه السلام هو شاعر أو ساحر. وسؤل اليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب،

وارق وابرع ، وأحسن الكلام وأبدع ، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام
بين المحققين

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحدق بهذه الصناعة مع تقدمه
في الكلام يقول : ان الكلام المنشور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى
في الشعر ، لان الشعر يضيق نطاق الكلام ، ويمتنع القول من انتهائه ، ويصده
عن تصرفه على سننه . وحضره من يتقدم في صنعة الكلام فراجع في ذلك ،
وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة ، وأبدع
اذا تضمن أسباب البلاغة . ويشهد عندي للقول الاخير أن معظم براعة كلام
العرب في الشعر ، ولا نجد في منشور قولهم ما نجد في منظومه ، وان كان قد
أحدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعهد في سالف أيام العرب ، ولم ينقل
من دواوينهم وأخبارهم ، وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه
ونواحيه ، فهو اذا تهذب في باب زوفاي له جميع أسبابه ، لم يقاربه من كلام
الآدميين كلام ، ولم يعارضه من خطابه خطاب ، وقد حكى عن المتنبي أنه
كان ينظر في المصحف فدخل اليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه
من سوء اعتقاده ، فقال له : هذا (١) المكي على فصاحته كان مفحما . فان صحت
هذه الحكاية عنه في الحادثة عرف بها (٢) أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول
الشعر أبلغ واذا كانت الفصاحة في قول الشعر أو لم تكن وبيننا ان نظم القرآن
يزيد في فصاحته على كل نظم ، ويتقدم في بلاغته على كل قول ، بما يتضح
به الامر اقضاح الشمس ، وبتبيين به بيان الصريح - وقفت على جليبه هذا الشأن .
فانظر فيما نعرضه عليك ما نعرضه ، وتصور بفهمك ما نصوره ، ليقع لك موقع
عظيم شأن القرآن ، وتأمل ما ترتبه ينكشف لك الحق ، اذا أردنا تحقيق
ما ضمنناه لك فن سبيلنا أن نعلم الى قصيدة متفق على كبر محلها ، وصحة نظمها

(١) في الخطبة (هو) (٢) في الخطبة (لها)

وجودة بلاغتها ومعانيها ، واجتماعهم على ابداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة والمعرفين بالحدق في البراعة ، فنقفك ^(١) على مواضع خلها ، وعلى تفاوت نظرها ، وعلى اختلاف فصولها ، وعلى كثرة فصولها ، وعلى شدة تعسفها ، وبعض تكلفها ، وما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام ضميم ، وبين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى ، وغير ذلك من الوجوه التي يجي تفصيلها ، ونبين ترتيبها ونزيلها

فأما كلام مسيلة الكتاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشغل به وأسخف من أن نفكر فيه . وإنما قلنا منه طر فاليتعجب القاري ، وليتبصر الناظر ، فانه على سخافته قد أضل ، وعلى ركا كته قد أزل ^(١) ، وميدان لجله واسع ، ومن نظر فيما قلناه عنه ، وفهم موضع جهله ، كان جديراً أن يحمده الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم . فما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء : « والليل الاطخم والذئب الادلم ، والجذع الازلم ، ما اتهمت أسيد من محرم » وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أنوه من أصحابه ، وقال أيضاً « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » وكان يقول : « والشام وألوانها ، وأعجبها السود والبانها ، والشاة السوداء والابن الابيض ، لانه لمعجب محض ، وقد حرم المنق فما لكم لا تجتمعون » وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الارض ولقريش نصفها ، ولكن قریشا قوم يعتدون » وكان يقول : « والمبديات زراعا ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والخايزات خبزاً ، والشاردات ثرداً ، واللاقيات لقماً ، إهالة وممناً ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ،

(١) كنا في الخطبة وهي أفصح . وفي المطبوعة (نوقفك)

(٢) الاصل المطبوع لك بالذال وما اثبتناه عن الخطبة

ريفكم فامنعوه^(١) والمعتر فأووه، والباقى فناوئوه، وقالت سجاح بنت الحارث بن عقيب - وكانت تنبأ فاجتمع مسيلة معها - فقالت له : ما أوحى اليك ؟ فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بالحلي ، أخرج منها نسمة تسمى من^(٢) بين صفاق وحشا » وقالت : فما بعد ذلك ؟ قال : أوحى الى « ان الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنزل فيهن قعسا ابلاجا ، ثم نخرجهما اذا شئنا اخراجا ، فينتجن لناسخا لانتاجا » فقالت : أشهد أنك نبي . ولم تنقل كل ما ذكر من سخره كراهية التنزيل . وروى أنه سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقواما قداموا عليه من بني حنيفة عن هذه الالفاظ فحكوا بعض ما نقلناه ، فقال أبو بكر سبحان الله ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل : فأين كان يذهب بكم ؟ ومعنى قوله « لم يخرج عن آل » أي عن ربوبية . ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخر هذا الكلام

فترجع الآن الى ما ضمناه من الكلام على الاشعار المنفق على جودتها وتقدم أصحابها في صناعتهم ، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب ، وتباعد مواقع البلاغة ، وتستدل على مواضع البراعة ، وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ، ولا تر تاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورا أثبت فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما ينصل بذلك من البديع الذي أبدعه ، والنشبية الذي أحدثه ، والتأليح الذي يوجد في شعره^(٣) والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من^(٤) صناعة وطبع وسلاسة وعلو^(٥) ومتانة ورقة وأسباب محمد وأمرؤ توثر ونمدح ، وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ، ويضمون أشعارهم الى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين

(١) من هنا تغيرت النسخة الخطية وكُتب على هامش الصحيفة : (هذه التكملة نقلت من نسخة

عبد الله بن عيسى)

(٢) ليس في الخطية (من)

(٣) في المطبوعة (والتأليح) وفي الخطية (والتأليح الذي نجد في شعره)

(٤) في الخطية (و)

(٥) في الخطية (وعفو)

[شعره] ^(١) في أشياء لطيفة وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه ، أو سوا
بينهم وبينه ، أو قربوا موضع تقدمهم عليه ، وبرزه بين أيديهم . ولما اختاروا
قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون
اعلان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تشوق الى معارضته ، وتساويه في
طريقته ، وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة ^(٢) ، وتقدمت عليه في
أسباب عجيبة ، وإذا جاءوا الى تعداد محاسن شعره كان أمراً محصوراً ، وشياً
معروفاً أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره ، وتشاهد مثل
ذلك البارع في كلام سواه ، وتنظر الى المحدثين كيف توغلوا الى حياة
الحاسن ، منهم من ^(٣) جمع رصانة الكلام الى سلاسته ، ومناقته الى عذوبته
والإصابة في معناه الى تحسین بهجته ، حتى أن منهم من إن قصر عنه في بعض
تقدم عليه في بعض ، لأن الجنس الذي يرمون اليه ، والغرض الذي يتواردون
عاليه ، مما للآدمي فيه بحال وللبشري فيه مثال ، فكل يضرب فيه بسهم ، ويفوز
فيه بقدر ، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً ، وتباين تبايناً وقد تتقارب تقارباً ،
على حسب مشاركتهم في الصنائع ، ومساهماتهم في الحرف . ونظم القرآن جنس
مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير ^(٤) متخلص فاذا شئت أن تعرف عظم
شأنه فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لا مريء القيس في أجود أشعاره ، وما
نبين لك من عوارده على التفصيل وذلك قوله :

فما نبتك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح قالمقراة لم يعف رصمها لما نسجتها من جنوب وشمال
الذين يتعصبون له أو يدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الخطية

(٢) في الخطية (وربما عثرت في وجهه في أشياء كثيرة)

(٣) في الخطية (في) (٤) في الخطية (النظم)

وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجم ، كله في بيت ، ونحو ذلك ، وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت . تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله ، أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا ، ولا تقدم به صانعا . وفي لفظه ومعناه خلل ، فأول ذلك أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب ^(١) و ذكره لا يقنضي بكاء الخلى وإنما يصح طلب الاسعاد في مثل هذا ، على أن يبكي لبكائه ، ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فلما ان يبكي على حبيب صديقه ، وعشيق رفيقه ، فأمر محال ، فان كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضاً عاشقا صبح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف أن لا يفار على حبيبه ، وأن يدعو غيره الى التفازل عليه ، والتواجد معه فيه . ثم في البيتين مالا يفيد من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الاماكن ، من الدخول وحومل وتوضيح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه أن يذكروا في التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضربا من العي ، ثم ان قوله « لم يعرف رسمها » ذكر الاصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لانه ان كان صادق الود فلا يزيده عفا الرسوم الا جدّة عهد ، وشدة وجد ، وإنما قرع له الاصمعي الى ^(٢) افادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه ، فيقال : أي فائدة لان يعرفنا انه لم يعرف رسم منازل حبيبه ؟ وأي معنى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكن أن يذكروا ، ولا يمكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل . ثم في هذه الكلمة خلل آخر ، لانه عقب البيت بأن قال : « فهل هند رسم دارس من معول » فذكر أبو عبيدة أنه رجم فأكذب نفسه كما قال زهير :

(١) كذا في النسخة المطبوعة وفي المخطبة (استوقف ثم بكى لذكر الحبيب) وفي العبارتين قصور

(٢) في المخطبة (لما)

قف بالديار التي لم يمضها القدم نعم وغيرها الارواح والديم (١)
 وقال غيره : أراد بالبيت الاول أنه لم ينطمس أثره كله ، وبالثاني انه ذهب
 بعضه ، حتى لا يتناقض الكلامان ، وليس في هذا انتصار لان معنى عفا ودرس
 واحد ، فاذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة ، واعتذار أبي
 عبيدة أقرب لو صح ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير
 فهو الى الخلل أقرب ، وقوله « لما نسجتها » كان ينبغي أن يقول لما نسجها
 ولكنه تعسف فجعل مافي تأويل التانيث لانها في معنى الريح ، والاولى التذكير
 دون التانيث ، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف . وقوله « لم يعف رسمها »
 كان الاولى أن يقول « لم يعف رسمه » لانه ذكر المنزل ، فان كان رد ذلك
 الى هذه البقاع والاماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل ، لانه انما يريد صفة
 المنزل الذي نزله حبيبته بعفائه ، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره ، وان أراد بالمنزل
 الدار حتى أنت فذلك أيضاً خلل ، ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية
 التطويل لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين ، بل يزيد عليها
 ويفضلها ، ثم قال :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لانهاك أمي ونحمل (٢)
 وان شغائى عبدة مَراقفة فهل عند رسم دارس من معول
 وليس في البيتين أيضاً معنى بديع ، ولا لفظ حسن كالاولين ، والبيت
 الاول منهما متعلق بقوله : « قفا نبك » فكأنه قال قفا وقوف صحبي بها على
 مطيهم أو قفا حال وقوف صحبي وقوله « بها » متأخر في المعنى وان تقدم في اللفظ ،
 ففي ذلك تكلف وخروج من (٣) اعتدال الكلام ، والبيت الثاني مختلف من جهة
 أنه قد جعل اللمع في اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك الى طلب حيلة

(١) في ديوان زهير : « على وغيرها الارواح والديم »

(٢) تحمل : يبرو على الماء المهملة وبالجميم (٣) في الخطبة (عن)

أخرى ، وتحمل ومعول عند الرسوم ؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ، ثم يسأل هل عند الربع من حيلة أخرى ؟ وقوله :

كدا بك من أم الخوثر قبلها وجارتها أم الرباب بناسل
إذا قامت تَضَوُّع المسك منها نسيم الصبا يأتي ^(١) بريا القرنفل
أنت لا تشك في أن البيت الأول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وإن كان منزوع المعنى ، وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله : « إذا قامت تَضَوُّع المسك منها » ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كل حال فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير. ثم فيه خلل آخر ، لانه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذ كر ذلك بعد ذكر المسك نقص . وقوله « نسيم الصبا » في تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله . وقوله :

ففاضت دموع العين منى صباية على النحر حتى بلّ دمي محلي
ألا رب يوم لك منهن صالح ^(٢) ولا سباً يوم بدارة جلجل
قوله : ففاضت دموع العين ، ثم استعانت به بقوله منى استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع ، وقوله : « على النحر » حشو آخر لأن قوله « بلّ دمي محلي » [يغنى عنه ويدل عليه ، وليس بحشو حسن] ثم قوله « حتى بلّ دمي محلي » ^(٣) [إعادة ذكره الدمع حشو آخر ، وكان يكفيه أن يقول حتى بلّ محلي فاحتاج لاقامة الوزن الى هذا كله ، ثم تقديره انه قد أفرط في افاضة الدمع حتى بل محله تفريط منه وتقصير ، ولو كان

(١) الذي في ديوان امرئ القيس (جارت) وكذا هو في الخطية

(٢) ويروي : « الأرب يوم صالح لك منها »

(٣) هذه الزيادة ليست موجودة في الخطية

أبدع لكان يقول : حتى بلّ دمعى مغائبهم وعراضهم ، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية ، إذ الدمع يبعد أن يبل المحمل وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على القليل ، وإن بله فلقلته وأنه لا يقطر ، وأنت نجد في شعر الخيزرزي ما هو أحسن من هذا البيت وأمن وأعجب منه ، والبيت الثاني خال من المحاسن والبديع ، خلو من المعنى ، وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوق ، فلا يرعك نوبله باسم موضع غريب ، وقل :

ويوم عقرت العذارى مطيقي فيا عجباً من رحلها المتحمل
فطل العذارى برنمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل

تقديره إذ كر يوم عقرت مطيقي ، أو برده على قوله : « يوم بدارة جلجل » وليس في المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته ^(١) قل بعض الأدباء : قوله « يا عجباً » بمعجم من سفه في شبابه من نحره نافقه لهم ، وإنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الأول ، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له ، وهذا الذي ذكره بعيد ، وهو منقطع عن الأول ، وظاهره أنه يتمجب من تحمل العذارى رحله ، وليس في هذا تعجب كبير ، ولا في نحر الناقة لمن تعجب ، وإن كان يعني به أنهم حملن رحله وإن بعضهن حملته فغير عن نفسه برحله فهذا قليلاً يشبه أن يكون عجباً ، لكن الكلام لا يدل عليه ويتجاف عنه . ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب ، ولا معنى بديع ، أكثر من سفاهته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائق وكلام رائق ، وأما البيت الثاني فيعدونه حسناً ويعدون التشبيه مليمحاً واقعاً ، وفيه شيء ، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم ، فلا يعلم أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقف ، وعجز عن تشبيه القسم الأول فرت مرسله ، وهذا نقص في الصنعة وعجز عن إعطاء

(٢) في الخطبة سلامته وهو خطأ

الكلام حقه . وفيه شيء آخر من جهة المعنى ، وهو أنه وصف طعامه (الذي أطعم من أضاف) بالجودة وهذا قد يعاب ، وقد يقال : ان العرب تفتخر بذلك ولا يروونه عيباً ، وإنما للفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً ، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فتحيه بقع للعامه ويجري على ألسنتهم فليس بشيء . قد سبق اليه ، وإنما زاد « المفضل » للفاقية وهذا مفيد ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعد أهل الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً . وفيه شيء آخر ، وهو أن تبججه بما أطعم للاحباب مذموم وإن سوغ التبجح بما أطعم للأضياف ، إلا أن يورد الكلام مورد الخجون ، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة وقوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

قوله : « دخلت الخدر خدر عنيزة » ذكره تكميلاً لاقامة الوزن لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحظة له ولا رونق ، وقوله في المصراع الاخير من هذا البيت : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته الى شعره ، وليس فيه غير هذا ، ونكر بره بعد ذلك « تقول وقد مال الغبيط » يعني قتب اليهودج بعد قوله : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن ، والا فحكاية قولها الاول كاف ، وهو في النظم قبيح ، لانه ذكر مرة « فقالت » ومرة « تقول » في معنى واحد وفصل خفيف . وفي مصراع الثاني أيضاً تأنيث من كلامهن ، وذكر أبو عبيدة أنه قال : « عقرت بعيري » ولم يقل ناقتي لانهم يحملون النساء على ذكر الابل لانها أقوى ، وفيه نظر ، لان الاظهر أن البعير اسم للذكر والانثى ، واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن ، وقوله :

قللت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعديني من جنائك الماعل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمام مغيل^(١)
 البيت الأول قريب الفسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف ، كأنه من
 عبارات المنحطين في الصنعة ، وقوله « فمثلك حبلى قد طرقت » عابه عليه أهل
 العربية ، ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام قرب مثلك حبلى قد طرقت ، وتقديره
 انه زير نساء وانه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن ، لان الحبلى والمرضة
 أبعد من الغزل وطلب الرجال ، والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار^(٢)
 والتهيام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول ، لان تقديره لا تبعدينى
 عن نفسك فاني أغلب النساء ، وأخدعن عن رأيهن ، وأفسدهن بالتغافل ،
 وكونه مفسدة لمن لا يوجب له وصلهن وترك إيمادهن إياه ، بل يوجب هجره
 والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد
 وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره ،
 وكقوله :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق ونحي شقها لم يحول
 ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت على وآت حلقة لم تحلل
 فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف ، وأي فائدة لذكره
 لمشيخته كيف كان يركب هذه القبايح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه
 الموارد ؟ ان هذا ليبغضه كل من سمع كلامه ويوجب له المقت ، وهو لو صدق
 لكان قبيحاً فكيف ويجوز أن يكون كاذباً ؟ ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا
 معنى حسن ، وهذا البيت متصل بالبيت الذي قبله من ذكر الموضع التي لها ولد
 محول ، فأما البيت الثاني وهو قوله : « ويوماً » ينعجب منه وإنما تشددت
 وتعمست عليه وحلفت عليه فهو^(٣) كلام رديء الفسج لا فائدة لذكره لذا أن
 حبيبتنه تمنعت عليه يوماً بموضع يسميه ويصفه ، وأنت تجدد في شعر المحدثين من

(١) يروي : محول
 (٢) في الخطبة : والاشتهار
 (٣) هذا جواب اما ، وانظر ابن تمام قوله : وإنما تشددت ، ولعله وانها

هذا الجنس في التغزل ما يذوب معه اللب وتطرب عليه النفس ، وهذا مما تستنكره النفس ويشتمز منه القلب ، وليس فيه شيء من الاحسان والحسن ، وقوله :
أفأطم مهلاً بعض هذا التمدل وان كنت قد أزمعت صرعى فاجلى
أغرك منى أن حبك قاتلي وملك مما تأمرى القلب يفعل
فالبيت الأول فيه ركازة جداً ، وثانيث ورقة ولكن فيها تخنيث ، ولعل
قائلاً يقول ان كلام النساء بما يلائهن من الطبع أوقع وأغزل . وليس كذلك ،
لانك نجد الشعراء في الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم . والمصراع الثانى
منقطع عن الاول لا يلائمه ولا يوافقه ، وهذا يبين لك اذا اعترضت (١) معه
البيت الذي تقدمه . وكيف ينكر عليها تدللها ، والمتغزل يطرب على دلال
الحبيب وتدله ؟ والبيت الثانى قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن
لا تغتر بما يربها من أن حبها يقتله ، وانها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والحب اذا
أخبر عن مثل هذا صدق ، وان كان المعنى غير هذا الذي عيب عليه وانما ذهب
مذهباً آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجلد فهذا خلاف ما اظهر من نفسه فيما
تقدم من الايات من الحب والبكاء على الاحبة ، فقد دخل في وجه آخر من
المناقضة والاحالة في الكلام ، ثم قوله : « تأمرى القلب يفعل » معناه تأمرى
والقلب لا يؤمر ، والاستعارة في ذلك غير واقعة ولا حسنة ، وقوله :

فإن كنت قد ساءت منى خليفة فلي ثيابي عن (٢) ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بهـيك في أعشار قلب مقتل

البيت الاول قد قيل في تأويله : انه ذكر النوب وأراد البدن ، مثل قول
الله تعالى : « وثيابك فطهر » وقال أبو عبيدة : هذا مثل للهجر ، وتنسل تبين

(١) في الخطبة (عرضت)

(٢) في الخطبة واللبون (من)

وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضعفه ، وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف [و] يوجب ^(١) قطعه ، فلم لم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خليفة توجب هجرانه والتقصي من وصله وأنه مهذب الاخلاق شريف الشئائل فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله ، والاستعارة في المصراع الثاني فيها تواضع وتقارب وإن كانت غريبة . وأما البيت الثاني فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ، ومعناه ما بكيت الا لتجرحي قلبا معشراً - أي مكسراً - من قولهم : برمة أعشار اذا كانت قطعاً - هذا تأويل ذكره الأصمعي رضي الله عنه ، وهو أشبه عندنا كثرهم . وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التي تقسم الجزور عليها ، ويعني بسهميك المملئ وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء . فأراد أنك ذهبت بقلبي أجمع ، ويعني بقوله : « قتل » مذل ، وأنت تعلم أنه على ما يعني به فهو غير موافق للآيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بينا ، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه لأنه رأى اللفظ مستكرهاً على المعنى الأول لأن القائل اذا قل « ضرب فلان بسهمه في الهدف » بمعنى أصابه كان كلاماً ساقطاً مردولاً ، وهو يرى أن معنى الكلمة ان عينها كالسهمين النافذين في إصابة قلبه المجروح فلما بكنا وذرفنا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه ، ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ ، ولكنه اذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل ، لأنه ان كان محتاجاً - على ما وصف به نفسه من الصبابة - فقلبه كله لها فكيف يكون بكاءها هو الذي يخلص قلبه لها ؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لأنه لم يسبق كلام يقضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك ، فتركبه هذا الكلام على ما قبله فيسه اختلال ، ثم لو سلم له بيت من عشرين

(١) في الخطبة : ويوجب .

بيتاً وكان بديعاً ولا عيب فيه فليس بعجيب ، لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين ، وانما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال انه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين فضلاً عن المتقدمين ، وانما قدم في شعره لآيات قد برع فيها وبأن حذفه بها ، وانما أنكرنا أن يكون شعره متناسباً في الجودة ، ومتشابهاً في صحة المعنى واللفظ ، وقلنا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كامل مستنكرة^(١) وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخف مستنم ، ولهذا قال الله عز اسمه : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فأما قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لوبها غير معجل
نجاوزت أحراساً البها ومشرأ على حراسا لو يسرون مقتلى
فقد قالوا : عنى بذلك انها كبيضة خدر في صفاتها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق البها ، بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ، ويعنى بقوله : « غير معجل » انه ليس ذلك مما يتفق قليلاً وأحياناً ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله غيره على انه رابط الجأش فلا يستمعجل اذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها . وليس في البيت كبير فائدة ، لانه الذي حكى في سائر أبياته فلا تتضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها فنكر يره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ، الا الزيادة التي ذكر من منعتها ، وهو - مع ذلك - بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني ، والبيت الثاني ضعيف . وقوله : « لو يسرون مقتلى » أراد أن يقول لو أسروا ، فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة ، والاختلال على نظمه بين ، حتى أن المحترز يحترز من مثله ، وقوله :

(١) في الخطبة (مستنكرة)

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
قد أنكر عليه قوم قوله: «إذا ما الثريا في السماء تعرضت» وقالوا:
الثريا لا تتعرض، حتى قال بعضهم: سمى الثريا وإنما أراد الجوزاء لأنها تعرض
والعرب تفعل ذلك، كما قال زهير: «كأحمر عاد» وإنما هو أحمر ممود
وقال بعضهم في تصحيح قوله «تعرض»: أول ما نطلع، كما أن الوشاح
إذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته، وهذا كقول الشاعر:

تعرضت لي بمجان خل تعرض المهرة في الطول
يقول: تريك عرضها وهي في الرسن، وقال أبو عمرو: يعني إذا أخذت
الثريا في وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة. والاشبه عندنا أن البيت
غير^(١) معيب من حيث عابوه به، وأنه من محاسن هذه القصيدة، ولولا أبيات
عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو
ويستولى على الآمد

أنت تعلم أنه ليس المتقدمين ولا للمتأخرين في وصف شيء من النجوم
مثل ما في وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن، فلما أن يكون قد عارضه
أوزاد عليه، فمن ذلك قول ذي الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء مخلق

ومن ذلك قول ابن المعتز:

وترى الثريا في السماء كأنها بيضات أدهي يلحن بندق

وكقوله:

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نور أوجام مفضض

(١) من هنا وجدت النسخة الخطية إلى حالتها

وقوله أيضا :

فناولنيها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به الساقى
وقول الاشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الانق الغربي قرط مسلسل
ولابن المعتز :

وقد هوى النجم والجوزاء فتبعه كذات قرط أرادته وقد سقطا
أخذه من ابن الرومي في قوله :

طيب ريقه اذا ذقت فاه والثرى بجانب الغرب قرط
ولابن المعتز :

قد سقاني المدام والصباح بالليل مؤزر
والثرى كنور غصن على الأرض قد ثر
وقوله :

وتروم الثريا في السماء مراما
كانكباب طمر كاد يلتقى لجاما^(١)
ولابن الطيرة :

اذا ما الثريا في السماء كأنها جنان وهى من سلكه فتبددا
ولو نسخت لك كل ما قلوا من البديع في وصف الثريا لظال عليك
الكتاب وخرج عن الغرض ، وإنما تريد أن نبين لك أن الابداع في نحو هذا أمر

(١) الرواية في الديوان هكذا :

ياخليلى حيا	واستقياى المداما
قد لبنا صباحا	وخلعنا ظلاما
وتروم الثريا	في الغروب مراما
كانكباب طمر	كاد يلتقى للجاما

قريب وليس فيه شيء غريب ، وفي جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن أو يساويه ، أو يقاربه ، فقد علمت أن ما خلق فيه ، وقدر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه أمر مشترك ، وشرعية مورودة ، وباب واسع ، وطريق مسلك ، وإذا كان هذا يثبت القصيدة ودرة الفلاحة واسطة العقد ، وهذا محله فكيف بما تمده ؟ ثم فيه ضرب من التكافؤ لا أنه قل « إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح » فقوله : « تعرضت » من الكلام الذي يستغنى عنه لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له ، وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله « تعرض أثناء الوشاح » وإنما أراد أن يقول : تعرض قطعة من أثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ ، حتى شبه ما هو كالنبي الواحد بالجمع ، وقوله :

فجئت وقد نصت لنوم ثيابها لدى السرير الالبسة المنفضل
فقلت : بين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك العاية^(١) تنجلي

انظر الى البيت الأول والابيات التي قبله ، كيف خلط في النظم ، وفرط في التأليف ، فذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحراس ، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل إليها من نزاعها ثيابها الاثواباً واحداً ، والمتفضل الذي في نوب واحد وهو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخراً ، وقوله : « لدى السرير » حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس في البيت حسن ، ولا شيء يفضل لأجله . وأما البيت الثاني ففيه تعليل واختلال ، ذكر الاصمعي أن معنى قوله « مالك حيلة » أي ليست لك جهة تنجي . فيها والناس حوالى^(٢) ، والكلام في المصراع الثاني منقطع

(١) يروى : الفوابة

(٢) في الحظية (احوال)

عن الأول ، وفظمه اليه فيه ضرب من التفاوت ، وقوله :

فقمتم بها أمشي نجر وراءنا على أنثرنا أذيل مرط مرجل^(١)
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذي حفاف عتقل
البيت الأول من مساعدتها إياه حتى قامت معه ليخلوا وانما كانت
نجر على الانثر أذيل مرط مرجل ، والمرجل ضرب من البرود يقال لوشيه
الترجل وفيه تكلف لانه قل « وراءنا على انثرنا » ولو قال « على انثرنا »
كان كائناً والذيل إنما يجر وراء الماشي فلا فائدة لذكره وراءنا ، وتقدير القول
فقمتم أمشي بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف ، وقوله أذيل مرط كان من
سبيله أن يقول ذيل مرط على أنه لو سلم من ذلك كان قريباً ليس مما يفوت بمثله
غيره ، ولا يتقدم به سواء ، وقول ابن المعتز أحسن منه :

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلاً وأسحب أذيالي^(٢) على الأثر
وأما البيت الثاني فقوله أجزنا بمعنى قطعنا ، والخبث بطن من الارض ،
والخفف رمل منعرج ، والعنقل المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض ،
وهذا بيت متفاوت^(٣) مع الأبيات المتقدمة ، لان فيها ما هو سلس قريب
يشبه كلام المولدين وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وآتى بهذه اللفظة
الوحشية المتقدمة ، وليس في ذكرها والتفضيل بالخاتما بكلامها فائدة ، والكلام
الغريب واللفظة الشديدة المبينة لنسيج الكلام قد نحمد اذا وقعت موقع الحاجة
في وصف ما يلائمها ، كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة (٧٦ : ١٠) « يوماً
عبوساً قطريراً » فأما اذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب
ما نحمد في موضعها ، وروي أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته :

(١) يروى (على أنثرنا ذيل مرط مرسل)

(٢) في الخطبة (أكلمي)

(٣) في النسخة المطبوعة « متقارب » وما اثبتناه عن الخطبة

بان الخليط برامتين فودعوا أوكلًا جدوا لبين نجرع ؟
 كيف العزاء ولم أجد مدينتهم قلبا يقر ولا شرابا ينقع ؟
 قل : وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :
 وتقول بوزع : قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع
 فقال : أفسدت شعرك بهذا الاسم
 وأما قوله :

هصرت بغصني دوحة قمايلت^(١) علي هضيم الكشح ربا الخلخل
 مهفهفة بيضاء غير مفاضة تراثها مصقولة كالسجنجل
 فمعنى قوله « هصرت » جذبت وثقيت ، وقوله « بغصني دوحة » تعسف
 ولم يكن من سبيله أن يجعلها اثنتين : والمصراع الثاني أصح ، وليس فيه شيء
 إلا ما يتكرر على السنة الناس من هاتين الصفتين . وأنت نجد ذلك في وصف
 كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على اللسان صالح وأما معنى قوله « مهفهفة » أنها
 مخففة ليست منقلة ، والمفاضة التي اضطرب طولها ، والبيت - مع مخالفته في الطبع
 الأبيات المتقدمة ، ونزوجه فيه إلى الألفاظ المستكرهة ، وما فيه من الخلل من
 تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض - فليس بظال ولكنه
 قريب متوسط ، وقوله :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطلق
 وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعط
 معنى قوله « عن أسيل » أي بأسيل ، وإنما يريد خدًا ليس بكز ، وقوله
 « تتقي » يقال اتقاه بقرصه^(٢) أي جعله بينه وبينه . وقوله : « تصد وتبدي
 عن أسيل » متفاوت ، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد ، وقوله :
 « تتقي بناظرة » لفظة مليحة ، ولكن أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل

(١) في الديوان والمعلقات (هصرت بقودي رأسها قمايلت) (٢) في الخطبة (بجهته)

وهو قوله : « من وحش وجرة » وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا ، كان من سبيله أن يضيف الى عبون الظباء أو المها دون اطلاق الوحش ففهمنا ما استنكر عيونها ، وقوله : « مطفل » فسروه على أنها ليست بصبية وانها قد استحكمت ، وهذا اعتذار متعسف ، وقوله : « مطفل » زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الاصمعي ، ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال انها اذا كانت مطفلا لحظت أطفالها بعين رقة ففي نظر هذه رقة نظر المودة ، ويقع الكلام معلقا تعليقا متوسطا . وأما البيت الثاني فمعنى قوله : « ليس بفاحش » أي ليس بفاحش الطول ، ومعنى قوله : « نصته » رفعت ، ومعنى قوله : « ليس بفاحش » - في مدح الاعناق - كلام فاحش موضوع منه ، واذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الاعناق ما يشبه السحر ، فكيف وقع على هذه الكلمة ، ودفع الى هذه اللفظة ؟ وهلا قل كقول أبي نواس :

مثل للظباء سممت الى روض صوادر عن غدِير
ولست أطول عليك قستثقل ، ولا أكثر القول في ذمه قستوحش ،
وأكل الآن الى جملة من القول ، فإن كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت
وعرفت ما رمينا اليه واستغنيت ، وإن كنت عن الطبقة خارجاً ، وعن الاتقان
بهذا الشأن خالياً ، فلا يكفيك البيان وإن استقرينا جميع شعره ، وتنبعنا عامة
الفاظه ، ودللنا على ما في كل حرف منه

اعلم ان هذه القصيدة قد رددت بين أبيات سوقية مبتذلة وأبيات
متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة ، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة ، وأبيات
معدودة بديعة ، وقد دللنا على المبتذل منها ، ولا يشبه عليك الوحش المستنكر

الذي يروع السمع ، ويهول القلب ، ويكبد اللسان ، ويعبس معناه في وجه كل خاطر ، ويكفر مطلقه على كل متأمل أو ناظر ، ولا يقع بمثله التمدح والتفاسيح ، وهو بجانب لما وضع له أصل الافهام ، ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام ، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ، ويلحق بالغرر والاشارات المستهمة

فأما الذي زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله :

ويضعي فتيت المسك فوق فراشها ثوم الضحى لم تنطق عن تفضل
والمصرع الأخير عندهم بديع ، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة لها من يكفها ، ومعنى قوله : « لم تنطق عن تفضل » يقول لم تنطق وهي فضل^(١)
وعن هي بمعنى بعد ، قال أبو عبيدة : لم تنطق فتعمل ولكنها تفضل
ومما يعدونه من محاسنها :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الغيوم^(٢) ليبتلي
فقلت له لما تغطي بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل كل
ألا أيها الثيل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصباح منك بأمل
وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة :

كلبي لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تفاس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يتلو النجوم بآيب^(٣)

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء فتقدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها ، وقد جعل ليل صدرا يثقل تمنحيه ويبطئ تفضيه ،

(١) يقال رجل أو امرأة فضل - بضمين ، أي متفضل في ثوب واحد ، كذا في القاموس ، والمتفضل الذي يبقى في ثوب واحد لينام أو يعمل عملاً

(٢) في الديوان والمعلقات (الغيوم)

(٣) في نسخة الديوان : تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرمى النجوم بآيب

وجعل له أردافاً كثيرة ، وجعل له صلباً يمتد ويتطاول ، ورأوا هذا بخلاف ما يستعبره أبوتهم من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة ، ورأوا ان الالفاظ جميلة ، واعلم أن هذا صالح جميل ، وليس من الباب الذي يقال انه متناه عجيب ، وفيه المام بالتكلف ، ودخول في التعمل

وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلود صخر حطه السيل من عل
وقوله أيضاً (١) :

له أبطالا ظبي وساقا نعامه وارخاء سرحان وتقريب تتفك
فأما قوله « قيد الأوابد » فهو مليح ، ومثله في كلام الشعراء وأهل
الفصاحة كثير ، والتعمل بمثله ممكن . وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا
قصيفاً ، ويؤلفون المحاسن تأليفاً ، ثم يوشحون به كلامهم . والذين كانوا من
قبل لغزائهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك ، انما كان يتفق لهم اتفاقاً ،
ويطرد في كلامهم اطراداً . وأما قوله في وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقاً
وتشبيهاً ، وفي سرعة جري الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف ،
وكذلك في جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة ، ولكن
قد عورض فيه وزوج ، والنوصل اليه يسير ، وتطلبه سهل قريب

وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في
الجلودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل
والاسترسال والتوحش والاستكراه ، وله شركاء في نظائرها ومنازعون في محاسنها
ومعارضون في بدائنها ، ولاسواء كلام ينحط من الصخر نارة ويذوب نارة ،
ويتلون تلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الاهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه ،

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الخطية

وتتقاذف به أسبابه ، و بين قول بحرى في سبكه على نظام ، وفي رصفه على منهاج وفي وضعه على حد ، وفي صفائه على باب ، وفي بهجته ورواقه على طريق . مختلفه مؤتلف ، ومؤتلفه متعدد ، ومتباعدة متقارب ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد . وهو على متصرفاته واحد ، لا يستصعب في حال ، ولا يتعقد في شأن

و كذا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فنتمكلم عليها ، ونبدل على معانيها ومحاسنها ، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها ، ونبسط لك القول في هذا الجنس ، ونفتح عليك في هذا النهج . ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا وللإكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره ووزنه بميزانه ومعياره ، ولذلك كتب وان لم تكن مستوفاة ، وتصانيف وان لم تكن مستقصاة . وهذا القدر يكفي في كتابنا ، ولم نحب أن ننسخ لك مأسطره الادباء في خطأ امرى القيس في العروض والنحو والمعاني ، وما عابوه عليه في أشعاره ، وتكلموا به على ديوانه ، لان ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ، ومحاذب لمقصوده . وانما أردنا أن نبين الجملة التي بينها لتعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة ، ومنزلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم . وأنت تجد المتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبر عليه فيه ، وتجد المتأخر معنى قد أغفله المتقدم ، وتجد معنى قد توافدا عليه ، وتوافيا اليه ، فهما فيب شريكا عنان ، وكأتهما فيه رضيعا لبان ، والله يؤتي فضله من يشاء .

فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فان القول نفيه في جهته ، ونحوه في بحره ، وتفضل دون وصفه . نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض وتستولى به على الأمد ، وتصل به الى المقصد ، وتصور اعجازه كما

تصوّر الشمس ، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر ، وأقرب عليك الغامض وأسهل لك العسير . واعلم ان هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الاصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تغطن لما فيه . وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب ان وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام الا ان يكون شعراً أو سجماً ، وليس كذلك ، فان احدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الاخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرائها وتراها في مظاهرها ونجودها فيه غير منازعة الى أوطانها ، وتجد الاخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ومرمى شراد ونايبة عن استقرار ولا أكثر عليك المنال ، ولا أضرب لك فيه الامثال ، وأرجع بك الى ما وعدتك من الدلالة ، وضمنت لك من تقريب المقالة ، فان كنت لا تعرف الفصل الذي بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام ومتصرفات مجاري النظام ، لم تستفد مما تقرّبه عليك شيئاً وكان التقليد أولى بك والاتباع أوجب عليك ، واكمل شيء سبب ولكل علم طريق ، ولا مسبيل الى الوصول الى الشيء من غير طريقه ، ولا بلوغ غايته من غير سبيله

خذ الآن - هداك الله - في تفريغ الفكر ونخاية البال ، وانظر فيما نعرض عليك ونهديه اليك ، متوكلاً على الله ومعتمداً به ومستعيناً به من الشيطان الرجيم ، حتى تنف على اعجاز القرآن العظيم . صمّاه الله عز ذكره حكماً وعظماً ومجيداً ، وقال (٤١ : ٤٢) : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وقال (٥٩ : ٢١) : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّداً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وقال (١٣ : ٣١) « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل الله الامر جميعاً » وقال (١٧ : ٨٨) : « قل

لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني ، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان ، حدثنا أبو يوسف الصيدي لاني ، حدثنا محمد ابن سلمة ، عن أبي سنان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري الطائي ، عن الحارث الاعور ، عن علي رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ان أمتك مستفتن من بعدك ، فسأل أوسئل - ما المخرج من ذلك : فقال : « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولي هذا من جبار لحكم بغيره قصمه الله ، وهو الذكركم الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم . فيه خبر من قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل . وهو الذي سمعته الجن فقالوا : ﴿ انا ممنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشدا ممنا به ﴾ لا يخلق على طول الرد ، ولا تنقضي عبره ، ولا تفتى عجائبه » وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب ابن شريك ، عن عبيدة ، عن أسامة ، بن أبي عطاء ، قال : أرسل النبي ﷺ الى علي رضي الله عنه في ليلة . فذكر نحو ذلك في المعنى ، وفي بعض ألفاظه اختلاف . وأخبرنا أحمد بن هلي بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب بن شريك ، عن بشر بن عمير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن أعطى نصف النبوة ، ومن قرأ القرآن كله أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى اليه » وذكروا الحديث

ولم يكن من عظم شأنه الا انه طبق الارض أنواره ، وجلال الآفاق ضياؤه ، ونفذ في العالم حكمه ، وقيل في الدنيا رسمه ، وطمس ظلام الكفر بعد

ان كان مضروب الرواق ، ممدود الاطناب ، مبسوط الباع ، مرفوع العاد ، ليس على الارض من يعرف الله حق معرفته أو يعبد حق عبادته أو يدين بمقامته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته ، فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور فقال (٤٢ : ٥٢) : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الایمان ، ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لنهدي الى صراط مستقيم » فانظر إن شئت الى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة ، وكل لفظ بديع واقع ، قوله « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » يدل على صدوره من الربوبية ، ويبين عن وروده عن الالهية ، وهذه الكلمة بمنفرد هاء وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه ، وكان واسطة عقده ، وفاتحة عقده ، وغرة شهره ، وعين دهره . وكذلك قوله : « ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا » فجعله روحاً لأنه يحیی الخلق ، فله فضل الارواح في الاجساد ، وجعله نوراً لأنه يضيء مضياء الشمس في الآفاق ، ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته ، ووقف وقوف الاسترشاد به على ارادته ، وبين أنه لم يكن ليهتدي اليه لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليهتدي فكيف كان يهدي لولاه ، فقد صار [يهدي ولم يكن (١)] من قبل ذلك ليهتدي ، فقال : وانك لنهدي الى صراط مستقيم » (٤٢ : ٥٣) « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ، ألا الى الله تصير الامور » فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمتان الاوليان (٢) مؤنلتان ، وقوله : « ألا الى الله تصير الامور » كلمة منفصلة مباينة للاولى ، قد صيرهما شريف النظم أشد اتصافاً من الكلام المألوف ، وألف انتظماً من

(١) هذه الكلمات غير موجودة بالنسخة الخطية وفي مكانها ياضر يتبع ما

(٢) بالنسخة المطبوعة (الاولتان) وهي لنة قليلة

الحديث الملائم، وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته . الامر
أظهر والمحدث ، والحال أبين من أن يحتاج الى كشف ، فأمل قوله (٩٦ : ٦)
« فائق الاصباح » وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز
العليم » انظر الى هذه الكلمات الاربعة التي ألف بينها ، واحتج بها على ظهور
قدرته ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة ، وبمفردها درة ؟ وهو
مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الامر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى في بهجة القدرة ،
ويتجلى بمخالصة العزة ، ويجمع السلاسة الى الرصانة ، والسلامة الى المتسافة ،
والرونق الصافي ، والبهاء الضافي . ولست أقول أنه شمل الاطباق المليح والايجاز
اللطيف ، والتعديل والتثيل ، والتقريب والتشكيل ، وان كان قد جمع ذلك وأكثر
منه ، لان العجيب ما يتأتى من افراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين
رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة ، فاذا ألقت ازدادت حسناً وزادت
إذا تأملت معرفه وإيماناً ، ثم تأمل قوله (٣٦ : ٣٧ - ٣٩) : « وآية لهم الليل
نسايخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري مسنقرها ذلك تقدير العزيز
العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » هل نجد كل لفظة
وهل تعلم كل كلمة تستقل بلاشتمال على نهاية البديع ، وتتضمن شرط القول البليغ ؟
فاذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت
حد المدهود ولا نحوز (١) شاو المؤلف ؟ فكيف لا نحوز قصب السبق ، ولا
تعالى عن كلام الملق ؟ ثم اقصد الى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها ،
وراع ما فيها من براهينها وقصصها تأمل السورة التي يذكر فيها النمل وانظر في
كلمة وكلمة وفصل فصل . بدأ بذكر السورة الى أن بين أن القرآن من عنده

(١) في النسخة الخطية لا نحوز بالجيم

فقال (٢٧ : ٦) : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى نارا فقال لاهله ~~لكنه~~ (٢٧ : ٧) : « أني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » وقال في سورة طه في هذه القصة (٢٠ : ١٠) : « لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » وفي موضع (٢٨ : ٢٩) : « لعل آتيكم منها بخبر أو جندوة من النار لعلكم تصطلون » قد تصرف في وجوه ، وأتى بذكر القصة على ضرب ، ليعلمهم عجزم عن جميع طرق ذلك ، ولهذا قال (٥٢ : ٣٤) : « فليأتوا بحديث مثله » ليكون أبلغ في تعجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم . وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها نامة في معناها . ثم قال (٢٧ : ٨) : « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » فانظر الى ما أجري له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء ، وكيف انتظم مع الكلام الاول ، وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلا يدل به عليه ، ومعجزة تهديه اليه ، وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن ، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ، ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء - عن نور البرهان - من غير سوء . ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف ، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف اذا قارنتها اخواتها وضممتها ذواتها تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها ، ثم من قصة الى قصة ، ومن باب الى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل الى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبلغ التنزيل وان أردت أن تنبين ما قلناه فضل تبين ، وتحقق بما ادعينا زيادة ^{تحقق} فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصة من هذه القصص ، وحديث من

هذه الاحاديث فعبّر عنه بعبارة من جهتك وأخبر عنه بالفاظ من عندك ، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر ، وتقبين في نظم القرآن الدليل الباهر ، ولذلك أعاد قصة موسى في سور ، وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة ، مع اتفاق المعنى ، فلعلك ترجع الى عقلك ، وتسقر ما عندك ، ان غلطت في أمرك أو ذهبت في مذاهب وهلك أو ساطت على نفسك وجه ظنك ، متى تهياً لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤلفة من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل ؟ وأحسب أنه يسلم من هذا - ومحال أن يسلم منه - متى ^(١) يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد ، والالفاظ الأعلام ، حتى يجمع بينها فيجملوها في فقرات من كلامه ، وقطعة من قوله ؟ ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطار قليلة فمتى يتفق له في قدر ما نقول أنه من القرآن معجز ؟ هيهات هيهات ! ان الصبح يطمس النجوم وان كانت زاهرة ، والبحر يغمر الانهار وان كانت زاخرة ، متى تهياً للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية (٢٧ : ٣١) : « ألا تعولوا عليّ وأتوني مسلمين » والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه من التدبير ، واشتغلت به ^(٢) من المشورة ، ومن تعظيمها أمر المستشار ، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة ، والكلمات المجيبة البليغة ، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها (٢٧ : ٣٢) : « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » ، وذكر قولهم (٢٧ : ٣٣) : « قلوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا نجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به ، وقوله « الامر

(١) في المطبوعة (حتى) وما أبتناه عن الخطبة

(٢) الضمائر المؤنثة عائدة على بلقيس ملكة سبا المذكورة في النصف ، وضمائر الجمع تعود على جنودها

اليك « تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن
 الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله فانظري ماذا تأمرين ، ثم الى هذا الاختصار
 والى البيان مع الایجاز ، فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه
 والایجاز ، وهذا مما يزيد الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ، ويتضمن
 الایجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه ، وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق
 عن الافهام ، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ، ثم لو
 وقع على الافهام (١) فما يجب فيه من شروط الاحكام أو بمعنى القصة وما تقتضي
 من الاعظام ، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيت ناقصاً في وجه الحكمة ، أو مدخولاً
 في باب السياسة ، أو مصغوفاً في طريق السيادة ، أو مشترك العبارات ان كان
 مستجود المعنى ، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى ، أو مستجلب البلاغة جيد
 المعنى ، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة ، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع ،
 وأنت لا تجد في جميع ما تلوينا عليك إلا ما إذا بسط أفاد ، وإذا اختصر كمل
 في بابه وجاد ، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرّف خاطره ، وبعث العليم في
 أطرافه عيون مباحته ، لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائم تنرى ، ثم فكّر بعد
 ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله (٢٧ : ٣٤) : « ان الملوك اذا دخلوا قرية
 أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث
 كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره ، وكالباقوت يتلأل بين شذوره .
 ثم تأمل تمكن الفاصلة - وهي الكلمة الثالثة - وحسن موقعها وعجيب حكمها
 وبارع معناها ، وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ، ولكفي قد
 بينت بما فسرته ، وقررت بما فصلت ، الوجه الذي سلكته ، والنحو الذي
 قصدت ، والقرض الذي اليه رميت ، والسمت الذي اليه دعوت ؛ ثم فكّر بعد

ذلك في شيء أدلّك عليه ، وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة ، فأجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة ، وتدرّج الخواصم والفوائج ، والبوادي . والمقاطع ، ومواضع الفصل والوصل ، ومواضع التنقل والتحول ، ثم اقض ما أنت قاض ، وان طال عليك تأمل الجميع فاقصر على سورة واحدة أو على بعض سور ، ما رأيك في قوله (٢٨ : ٤) : « ان فرعون علا في الارض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، وروقتها على ما تصاب ، وفصاحتها على ما تعرف ، وهي تشتمل على جملة وتفصيل ، وتفسير ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء ، واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما ، لان النفوس لا تطمن على هذا الظلم ، والقلوب لا تقرر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ، وكفت في التظلم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره ، ثم ذكر وعده تخلصهم بقوله (٢٨ : ٥) : « وزيد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وهذا من التأليف بين المؤلف ، والجمع بين المستأنس ، كما ان قوله (٢٨ : ٧٧) : « وابتنع فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع ، نائية المطارح ، قد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من الشيء المؤلف في الاصل ، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع ؛ ومثل هذه الآية قوله (٢٨ : ٦٨) : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وقعالى عما يشركون » ومثلها (٢٨ : ٥٨) . « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فنلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً وكنا نحن الوارثين » ومن

المؤتلف قوله (٢٨ : ٨١) . « نخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين » وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر . ومن البسبب الآخر قوله تعالى (٢٨ : ٨٨) : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم » واليه 'ترجعون' كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها باضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته ، ثم نجد فيما تنظم نقل النظم ونفور الطبع ، وشراد الكلام ، وتهافت القول ، ونعم جانب ، وقصورك في الايضاح عن واجبه ، ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل حتى تبين عليك مواضع الوصل ، ويستعصب عليك أما كن الفصل ، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواضع زاجرة ، وأمثالا سائرة . وحكما جليلة ، وأدلة على التوحيد بينة ، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة ، وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين ، هل نجد كلامه في المديح والغزل والفخر والمجوى يجري مجرى كلامه في ذكر القصص ؟ انك لتراه اذا جاء الى وصف واقعة أو نقل خبر عامي الكلام سوقي الخطاب ، مسترسلا في أمره ، متساعلا في كلامه ، عادلا عن المؤلف من طبعه ، وناكبا عن المعبود من سجيته ، فإن اتفق له في قصة كلام جيد كان قدر ثنتين أو ثلاثة ، وكان ما زاد عليها حشوا وما تجاوزها لغوا . ولا أقول انها تخرج من عادته عفواً لأنه يقصر عن العفو ، ويقف دون العرف ، ويتعرض للركاكة ، فإن لم تقنع بما قلت لك من الايات فتأمل غير ذلك من السور ، هل نجد الجميع على ما وصفت لك لو لم تكن الا سورة واحدة لكفت في الاعجاز ، فكيف بالقرآن العظيم ؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكني وأقنع وشفى ، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء لما طلبت بينة سواها بل قصة من قصصه

وهي قوله (٢٦ : ٥٢) : « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي انكم متبوعون » الى قوله (٢٦ : ٥٧ - ٦٠) : « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني اسرائيل فأتبعوهم مشرقين » حتى قل (٢٦ : ٦٣) « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » ثم قصة ابراهيم عليه السلام ، ثم لولم تكن الا الآيات التي انتهى اليها القول في ذكر القرآن وهي قوله (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٥) : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » وهذه كلمات مفردة بفواصلها ، منها ما يتضمن فائحة و فاصلة ، ومنها ما هي فائحة وواسطة و فاصلة ، ومنها كلمة بفاصلتها تامة ، دل على أنه نزل على قلبه ليكون نذيراً ، وبين أنه آية لكونه نبياً ، ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال (٢٦ : ٢١٤ - ٢١٥) : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز ، وتبين التصرف البديع والتنقل في الفصول الى آخر السورة ، ثم راع المقطع العجيب وهو قوله (٢٦ : ٢٢٧) : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد ، وان تنظم مثل هذا النظم ، وان نجد مثل هذه النظائر السابقة ، وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟

ولولا كراهة الإملال جلثت الى كل فصل فاستقرت على الترتيب كلماته ، وبيئت لك ما في كل واحدة منها من البراعة ومن عجيب البلاغة ، وأملك تستبدل بما قلنا على ما بعده ، وتستغني بنوره ، وتهتدي بهداه ، ونحن نذكر آيات آخر الترداد استنبصاراً وبتقدم تيقناً ، تأمل من الكلام المؤلف قوله (٤٠ : ١ - ٣) : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو اليه المصير » أنت قد قدرت الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته ، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم

مثل هذا النظم في هذا القدر ، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة ، واتل ما بعدها من الآي واعرف وجه الخلوص من شيء الى شيء : من احتجاج الى وعيد ، ومن اعداء الى اعداء ، ومن فنون من الامر شئ مختلفة تأتلف بشريف النظم ، ومتباعدة تتقارب بعلى الغم ، ثم جاء الى قوله (٤٠ : ٥ - ٦) : « كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » الآية الأولى أربعة فصول ، والثانية فصلان ، وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله : « وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه » وهل تقم في الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظه ؟ وهل يسد مسده في الاصلة نكته : لو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو ليلذّوه ونحو هذا ما كان ذلك بعيداً ولا بارعاً ، ولا عجبياً ولا بالغاً ، فأنقد موضع هذه الكلمة وتعلّم بها ما تذهب اليه من نخب الكلام [وجميل] ^(١) الالفاظ والاهتمام المعاني فان كنت تُقدّر ان شيئاً من هذه الكلمات التي [عددناها] ^(١) عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب فلا سبيل لك الى الوقوف على تصاريف الخطاب ، فافزع الى التقليد ، واكف نفسك مؤنة التفكير ، وان فطنت فانظر الى ما قل من رد عجز الخطاب الى صدره بقوله « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم ذكر عقيبتها العذاب في الآخرة وأتلاها تلو العذاب في الدنيا ، على الأحكام الذي رأيت ، ثم ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذّبين بالآيات والرسل فقال (٤٠ : ٧) « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به » الى أن

(١) في مكان هذه الكلمة من الخطبة يابض بمقدارها

ذكر ثلاث آيات ، وهذا كلام مفصول ، تعلم عجب اتصاله بما سبق ومضى ،
وانتسابه الى ما تقدم وتقتضى ، وعظم موضعه في معناه ، ورفيع ما يتضمن من
تحميدهم ونسبهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله (٤٠ : ٧) : « ربنا
وسعت كل شيء رحمة وعلما » هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى ،
ولطيف هذه الحكاية ، وتلازم هذا الكلام ، وتشاكل هذا النظام ؟ وكيف
يهتدي الى وضع هذه المعاني بشري ؟ والى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسي ؟
ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى ، ثم نبه على أمر القرآن وأنه
من آياته ، بقوله (٤٠ : ١٣) : « هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء
رزقاً وما يتذكر الا من ينسب » وانما ذكر هذين الأمرين الذين يختص
بالقدرة عليهما لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء ، ولأن الرزاق الذي لو لم
يرزق لم يمكن بقاء النفس نجب طاعته والنظر في آياته ، ثم قال (٤٠ : ١٤ - ١٦) :
« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي
الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون
لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » قف على هذه
الدلالة ، وفكر فيها ، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية ،
والكلمات السامية ، والحكم البالغة ، والمعاني الشريفة تعلم ورودها عن الالهية ،
ودلائها على الربوبية ، وتحقق أن الخطب المنقولة عنهم والأخبار الماثورة في كلماتهم
الفصيحة من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية وما تحوم عليه الأفكار
الآدمية ، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول ، أي خاطر يقشوف الى أن
يقول : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم
هم بارزون » وأي لفظ يدرك هذا المضمار ، وأي حكيم يهتدي الى ما لهذا
من الغور ، وأي فصيح يهتدي الى هذا النظم ؟ ثم استقرى الآية الى آخرها
واعتبر كلماتها ، وراع بعدها قوله (٤٠ : ١٧) : « اليوم تجزي كل نفس بما كسبت »

لا ظلم اليوم أن الله سريع الحساب « من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها وعلى خفتها في النظم وموقعها من القلب ؟ ثم تأمل قوله (٤٠ : ١٨ - ٢) « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاطمين ، ما للظالمين من حليم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ، أن الله هو السميع البصير » كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها من أنه إذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها ، أو في خطبة كانت وجهها ، أو قصيدة كانت غرة غرتها ، وبيت قصيدتها ، كالياقوتة التي تكون فريدة العقد وعين الفلادة ودرة الشدر ، إذا وقع بين كلام وشحه ، وإذا ضمّن في نظام زينه ، وإذا اعترض في خطاب تميز عنه ، وبأن يحسنه منه ؛ ولست أقول هذا لك في آية دون آية ، وسورة دون سورة ، وفصل دون فصل ، وقصة دون قصة ، ومعنى دون معنى ؛ لأنني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والخبار ، وفي الشرائع والأحكام ، وفي الدفاعة والتوحيد وفي الحجج والتثبيات ، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور . ألا ترى أن الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصر ، والأديب إذا تكلم في بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره ، ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في أمر ، ولا يختلف في حال ؛ بل له المثل الأعلى ، والفضل الأسنى . وفيما شرحناه لك كفاية ، وفيما بيناه بلاغ . ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أخر ، منها قوله (٥ : ٤) : « يستلونك ماذا أحل لهم ؟ قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب » . أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع ما يدلك - ان شئت - على الإعجاز مع هذا الاختيار والإيجاز ،

فكيف اذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة ؟ ونحو هذه الآية قوله (٧ : ١٥٧) :
 « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجسونه مكتوبا عندهم في التوراة
 والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحمل لهم الطيبات ويحرم عليهم
 الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه
 ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » وكلاية التي بعدها
 في التوحيد واثبات النبوة ، وكلايات الثلاث في الموارث . أي بارع يقدر
 على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام ؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من
 بديع النظم ؟ وان جمعت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى (٢١ : ٢٢ - ٢٣) :
 « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون .
 لا يسئل عما يفعل وهم يسألون » . وكلايات في التوحيد كقوله (٤٠ : ٦٥) :
 « هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » وكقوله
 (٢٥ : ١ - ٢) : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ،
 الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ،
 وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . وكقوله (٦٧ : ١) : « تبارك الذي بيده
 الملك وهو على كل شيء قدير » الى آخرها وكقوله (٣٧ : ١ - ١٠) :
 « والصفات صفا فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكران ان الحكم لواحد رب
 السموات والارض وما بينهما ورب المشارق انا زينا السماء الدنيا بزينة
 الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الاعلى ويقذفون
 من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب
 ثاقب » هذه من الآيات التي قل فيها الله تعالى ذكره (٣٩ : ٢٣) . « الله
 نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تفشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم
 تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل
 الله فما له من هاد » وانظر بعين عقلك وراجع جليلة بصيرتك اذا تفكرت في

كلمة كلمة مما نقلناه اليك وعرضناه عليك ، ثم فيما ينتظم من الكلمات ، ثم الى أن يتكامل فصلاً وقصة أو يتم حديثاً وسورة ، لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب ، وتدبره على نحو هذا التنزيل ، فلم ندع ما ادعيناه لبعضه ، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله ، وإن كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر ، والآية أكشف وأبهر . وإذا تأملت على ما هديناك اليه ووقفناك عليه فانظر هل ترى وقع هذا النور في قلبك واشتماله على لبك وسريانه في حسك ونفوذه في عروقك وامتلأك به ايقاناً واحاطة واهتمامك به ايماناً وبصيرة ، أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه والهزة تعمل في جوانبك من لون والارباحية تستولى عليك من باب ، وهل تجد الطرب يستفزك لطيف ما فطنت له ، والسرور يجررك من عجب ما وقفت عليه ، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك عزّة وفي أعطافك ارتياحاً وهزة ، وترى لك في الفضل تقدماً وتبريزاً ، وفي اليقين سبقاً وتحقيقاً ، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ، ومهاويهم في ظلال القلة والدلة ، وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها مراتبهم بحيث يجب أن ترتبها . هذا كله في تأمل الكلام ونظامه ، وعجيب معانيه وأحكامه ، فإن جئت الى ما انبسط في العالم من بركت وأنواره ، وتمكن في الآفاق من يمنه وأضوائه ، وثبت في القلوب من اكباره واعظامه ، وتفرق في النفوس من حتم أمره ونهيه ، ومضى في الدماء من مفروض حكمه ، والى أنه جعل عماد الصلاة التي هي ثلوة الايمان في التأكيده ، ونائية التوحيد في الوجوب ، وفرض حفظه ، ووكل الصغار والكبار بتلاوته ، وأمر عند افتتاحه بما أمر به تعظيمه من قوله « فاذا قرأت القرآن فاستمعوا له يا أيها الذين آمنوا لعلكم تتقون » لم يؤمر بالتعود لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه فهل يدلك هذا على عظيم شأنه وراجح ميزانه وعالي مكانه وجملة الامر أن نقد الكلام شديد ويميزه صعب .

ومما كتب الي الحسن بن عبد الله العسكري : أخبرني أبو بكر بن دريد
 قل : سمعت أبا حاتم يقول : سمعت الأصمعي يقول : فرسان الشعراء أقل من
 فرسان الحرب . وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : العلماء بالشعر أعز
 من الكبريت الأحمر ، وإذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق
 تمييزه ، ويصعب نقده ، يذهب عن محاسنه الكثير ، وينظرون الى كثير من
 قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون في الاحسن منه
 اختلافا كثيرا ، وتباين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحيرون
 فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأتى في مقدورهم ، ولا يمثل بخواطرهم ؟ وقد حير
 القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم ولا أتم بلاغة ولا أحسن براعة ، حتى
 دهموا حين ورد عليهم ، وولدت عقولهم ، ولم يكن عندهم فيه جواب غير ضرب
 الامثال ، والتعرض عليه ^(١) ، والتوهم فيه ، وتقسيمه أقساما ، وجعله عشرين .
 وكيف لا يكون أحسن الكلام وقد قال الله تعالى (٣٩ : ٢٣) : « الله زَلَّ
 أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين
 جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ومن
 يضل الله فاله من هاد » استغفم فهم هذه الآية و كفاك واستغفم علم هذه
 الكلمات وقد أغفلك ، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله ، ولا تعرف
 براعته بكثرة فصوله ، ان القليل يدل على الكثير ، والقريب قد يهجم بك على
 البعيد ، ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة وكبر محلها
 وذهابها على أقوام ذكر في آخر هذه الآية ما ذكره وبين ما بين ، فقال : « ذلك
 هدى الله يهدي به من يشاء » فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد .
 وقال (٣٩ : ٢٣) : « ومن يضل الله فاله من هاد » وقال (٢ : ٢٦) :
 « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » وقد بسطنا لك القول رجاء افهامك ،

(١) لعله (والتعرض عليه)

وهذا المهاج الذي رأيته إن سلكته يأخذ بيدك ويدلك على رشدك ويغنيك عن ذكر براعته آية آية لك . واعلم أنا لم نقصد فيها سطرناه من الآيات ومبيناه من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والأظهر ، لانا نعتد في كل سورة ذكرناها وأضر بنا عن ذكرها اعتقادا واحداً في الدلالة على الإعجاز ، والسكافية في المنع والبرهان ، ولكن لم يكن بد من ذكر بعض فذكرنا ما تيسر ، وقلنا فيما أتجه في الحال وخطر ، وان كنا نعتقد ان الاعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعض أدق وأغمض ، والكلام في هذا الفصل يجيء بعد هذا ، فاحفظ هنا في الجملة ما كررنا والسبر بعد ذلك في التفصيل اليك . وحصل ما أعطيناك من العلامة ، ثم النظر عليك

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين : أحدهما ما يتم بنفسه ، أو بنفسه وفصلته فينبير في الكلام أنارة النجم في الظلام ، والثاني ما يشتمل على كلمتين أو كلمات اذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة وغاية البلاغة ، وانما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير أو خطاب طويل ، فتراها ما بينها تدل على نفسها وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها ، فاذا ضمت الى اخواتها وجاءت في ذواتها أرتك القلائد منظومة ، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة والجواهر مبثوثة ، ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر لأشدتلك أفاظاً وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه وكيف ترى بهجتها في أثنائه وكيف تمتاز منه ، حتى انه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين انه أجنبى من الكلام الذي تضمته ، والباب الذي توسطه ، وأنكر مكانه واستكبر موضعه ، ثم تناسبها في البلاغة والابداع وتماثلها في السلاسة والاعراب ، ثم انفرادها بذلك الاسلوب وتخصصها بذلك الترتيب ، ثم سائر ما قد منا ذكره مما نكره اعادته . وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه ، ويختل تصرفه في معانيه ، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه ،

ويضيق به النطاق في مذاهبه ، ويرتبك في أطرافه وجوانبه ، ويسلمه للتكلف
الوحش كثرة تصرفه ، ويحمله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه ، ونظم
القرآن في مؤلفه ومختلفه ، وفي فصله ووصله ، وافتتاحه واختتامه ، وفي كل نهج
يسلكه ، وطريق يأخذ فيه ، وباب ينهجم عليه ، ووجه يؤمه - على ما وصفه
الله تعالى به - لا يتفاوت ، كما قال (٤ : ٨٢) : « ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ولا يخرج عن تشابهه وتماثله ، كما قال (٣٩ : ٢٨) :
« قرآنًا عربيًا غير ذي عوج » ، وكما قال (٣٩ : ٢٣) : « كتابًا متشابها »
ولا يخرج عن إبانته ، كما قال (٢٦ : ١٩٥) « بلسان عربي مبين » ، وغيره
من الكلام كثير التلون ، دائم التغير ، يقف بك على بديع مستحسن ، ويعقبه
قبيح مستهجن ، ويطلع عليك بوجه الحسن ، ثم يعرض للهمج بوجه القبيح
الشواه ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزهر ، وقد
يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهيم ، قد يقع اليك منه الكلام المتيبج^(١)
والنظم المشوش ، والحديث المشوه ، وقد نجد منه ما لا يتناسب ولا يشابه ،
ولا يتألف ولا يتماثل ، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى :

وشعر كبر الكبش فرق بينه لسان دعى في القريض دخيل
وقل آخر :

وبعض قريض القوم أولاد علة يكذب لسان الناطق المتحفظ

فإن قل قائل : فقد نجد في آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ،
ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار
يزيد على الكلمات المفردة ، وحده يتجاوز حد الالفاظ المستبعدة ، وإن كان
الأكثر على ما وصفته به ، قيل له : نحن نعلم أن قوله (٤ : ٢٣) « حرمت
عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخوانكم وعماتكم وخالاتكم » إلى آخر الآية ليس

من القبيل الذي يمكن اظهار البراعة فيه وابانة الفصاحة ، وذلك يجري عندنا
مجرى ما يحتاج الى ذكره من الاسماء والالقاب ، فلا يمكن اظهار البلاغة فيه ،
فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة ، بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل
الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل في هذه الآية - ان
تأملت - ألا ترى انه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها وادلائها بنفسها ومكان
بعضيتها ، فهي أصل لكل من يدلى بنفسه ممن ، لانه ليس في ذوات الانساب
أقرب منها ، ولما جاء الى ذوات الأسباب ألحق لها حكم الام من الرضاع ، لان
اللحم ينشره اللبن بما يفدوه فيحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية ، ففشر
الحرمه بهذا المعنى وألحقها بالوالدة ، وذكر الأخوات من الرضاغة فنبه بها على
كل من يدلي بغيرها وجعلها تلو الام من الرضاع ، والكلام في اظهار حكم هذه
الآية وفوائدها يطول ، ولم نضم كتابنا لهذا ، وسبيل هذا أن نذكره في
كتاب معاني القرآن ان سهل الله لنا املاءه وجمعه ، فلم تنفك هذه الآية من
الحكم التي تخلف حكمة الاعجاز في النظم والتأليف ، والفائدة التي تنوب مناب
العدول عن البراعة في وجه الترصيف ، فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء ولم
يهند للاغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته ، وقد
يتفق في الشعر ذكر الاسامي فيحسن موقعه ، كقول أبي دواد الأسدي :

ان يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
باشدهم كلباً على أعدائه وأعزهم فقدأ على الاصحاب

وقد يتفق ذكر الاسامي فيفسد النظم ويقبح الوزن ، والآيات الأحكاميات
التي لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الالفاظ ما يعتبر في غيرها ، وقد
يمكن فيها ، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في باب ما ليس عليه

مزيد في البلاغة وعجيب النظم ؛ ثم في جملة الآيات ما ان لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والالفاظ الآحاد فقد نجد ذلك مع تركيب الكلمتين والثلاث ، ويطرد ذلك في الابتداء ، والخروج ، والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة ، أو اجتماع ذلك أو في بعض ذلك ، ما يخلف الابداع في أفراد الكلمات . وإن كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه ؛ وإذا عرف ما يجري اليه الكلام ، وينهى اليه الخطاب ، ويقف عليه الاسلوب ، ويختص به القبيل بأن عند أهل الصنعة تميز بابه وأفراد سبيله ، ولم يشك البليغ في انتمائه الى الجهة التي يفتني اليها ، ولم يرتب الاديب البارع في انتسابه الى ما عرف من نهجه ، وهذا كما يعرف طريقه مترسل في رسالته فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه ، فكأنه يرى أنه يعد عليه مجاري حركاته وأنفاسه . وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه يعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر ؛ وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها ، وتفصيلها يطول ، وعجائبها لا تنقضي . فمنها الكلام (١) والاشارات ، وإذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً ربما زاد الإفهام به على الايضاح ، أو ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه ، كان النهاية في معناه ، وذلك كقوله (١٧ : ١) : « سبحان الذي أمرى بعبد له يسلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » فصول هذه الآية وكلماتها على ما شرحناه من قبل البلاغة والالطاف في التقدم وفي تضمن هذا الامر العظيم والمقام الكريم ، ويتلو هذه قوله (١٧ : ٢) : « وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل » هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع ، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع ما لا ينفك منه القول ، وقد يتبرأ الكلام

(١) يياض بالاصلين يتبع لكلمة واحدة

المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التثبيج^(١) والتباين للخلل الواقع في النظم ، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبين عليه تميز الخروج ، ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر نوح وكيف أنقذ عليه ؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها - مع خروجها مخرج البروز من الكلام الاول - الى ذكره ، واجرائه الى مدحه بشكره ، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته ، وأن يستنوا بسنته في أن يشكروا كشكره ، ولا يتخذوا من دون الله وكلاء ، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه ايام من الطوفان لما حملهم عليه ونجاهم فيه حين أهلك من عداهم به ، وقد عرفهم أنه انما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالافضل والاحسان حتي يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولدهم وهم من ذريته ، فلما عادوا الى جهالتهم ونمردوا في طغيانهم ، عاد عليهم بالتعذيب . ثم ذكر الله عز وجل في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التي كانت لم بكلمات قليلة في العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل ، ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدريج وأبدع تاريخ بقوله (١٧ : ٧) : « ان أحسنتم أحسنتم لا نفسكم وان أسأتم فلها » ولم ينقطع بذلك^(٢) الكلام ، وأنت ترى الكلام يقبده مع اتصاله وينتشر مع انتظامه ، فكيف بالقاء ما ليس منه في أثناءه وطرح ما بعده في أدراجه ؟ الى أن خرج الى قوله (١٧ : ٨) « عسى ربكم أن يرحكم وان عدتم عدنا » يعني ان عدم الطاعة عدنا الى العفو ، ثم خرج خروجاً آخر الى ذكر القرآن . وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وماله من علو الشأن ، لا يطلب مطلباً

(١) التثبيج ، والتثبيج - محركة - اضطراب الكلام وتفتيته وتعمية الخط وترك بيانه

(٢) هنا بالنسخة الخطية ياخذ بسم لكلمة واحدة

الا انفتح ، ولا يسلك قلبا الا انشرح ، ولا يذهب مذهبا إلا استنار وأضاء ،
ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السواء ، لا تقع منه على فائدة فقدّرت انها أقصى
فوائدها الا قصرت ، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها الا وقد أخلت ؛
ان الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله ، وأحق من
هَبْذَمَةٍ لو كان شعره كله كالآبيات المختارة التي قدمناها لأوجب البراءة
من ^(١) قوله :

وَرَسَنَ كَسْدُنِي سَنَاءَ وَسُنَاءَ ذَعَرْتُ بِمَدْلَاجِ الْمَجِيزِ نَهْوَضِ
قال الاصمعي : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم . وقال بعضهم :
السنيق أكمة . وقال فيها :

لَهُ قُصْرٌ بِاعْيَرٍ وَمَسَاقٍ نَعَامَةٍ كَفَحَلِ الْمَجَانِ الْقَيْصَرِيِّ الْعَضْوَضِ
وقوله :

عَصَافِيرٌ وَذَبَابٌ وَدُودٌ وَأَجْرٌ مِنْ مَجْلَلَةِ الذَّبَابِ ^(٢)
وزاد في تفبيح ذلك وقوعه في أبيات فيها :

فَقَدْ طَوَّفَتْ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْأَيَابِ
وَكُلَّ مَكَارِمِ الْإِخْلَاقِ سَارَتْ إِلَيْهِ هَمِّي وَنَا اِكْتِسَابِي
وكفوله في قصيدة قلها في نهاية السقوط :

أَزْمَانَ فَوْهَا كَلَّمَا نَبَهْتَهَا كَالْمَسْكِ فَاحِ وَظَلَّ فِي الْفَدَامِ
أَفْلَا نَرَى أَظْلَمَانَهُنَّ بَوَاكِرَا كَالنَّخْلِ مِنْ شَوْكَانَ حِينَ صِرَامِ
وَكُنْ شَارِبَهَا أَصَابَ لِسَانَهُ مُومٌ بِخَالِطِ جِسْمِهِ بِسَتَامِ
وكفوله :

(١) في الخطبة (منه)

(٢) في الخطبة (الذباب)

لم يفعلوا فعل آل حنظلة انهم جبر بثما اثمروا
لا جبري وفي ولا عدس ولا آست عير بحكها الثفر
ان بنى عوفر ابتنوا حسبا ضيعه الداخلون (١) اذ غدروا
وكقوله :

أبلغ شهابا وأبلغ هل أذاك الخيزمال (٢)
انا تركنا منكم قتلى بخوعى وسبياً كالسعالى
بمشين بين رحالنا معترفات بجوع وهزال

ولم يقع مثل ذلك له وحده ، فقد قل الاعشى :

فأدخلك الله برد الجنا ن جدلان في مدخل طيب
وقال أيضا :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطعالمها
وقال في فرسه :

ويأمر للبحوم كل عشية بقت وتعليق فقد كاد يسبق
وقال :

شاو مثل شلول شلش شول (٣)

وهذه الألفاظ في معنى واحد ، وقد وقع لزهير نحوه كقوله :

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سفتحت فيه المقادم والأنمر
كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها :

وهل يُنبِت الخلطى الا وشيجه وتفرس الا في منابتها النخل
وكقول الطير مأح :

(١) في الخطبة (الدخلون)

(٢) في الخطبة (هل أذاك الخيزمال)

(٣) صدر هذا البيت : وقد غدوت الى الحانوت يتبعني

سوف تدنيك من ليس سبنتا ة امارت بالبول ماء الكراض
 السبنتاة : الناقة الصلبة ، والكراض : ماء الفحل ، أسالت ماء الفحل مع
 البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف ، والمائر : السائل
 فان قال قائل أجدهك تحاملت على امرئ القيس ورأيت أن شعره يتفاوت
 بين اللين والشراسة ، وبين اللطف والشكاسة ، وبين التوحش والاستئناس ،
 والتقارب والتباعد ، ورأيت الكلام الأعدل أفضل ، والنظام المستوثق
 أكمل ، وأنت نجد البحري يسبق في هذا الميدان ، ويفوت الغاية في هذا
 الشأن ، وأنت ترى للكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ، ويقدمون رأيه في
 البلاغة على كل رأي ، وكذلك نجد لأبي نواس من بهجة اللفظ ودقيق المعنى
 ما يتحير فيه أهل اللفظ ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر ، ويرون لنظمه
 ووعه لا يرون لنظم غيره ، وزبرجاً لا يتفق لسواه ، فكيف يعرف فضل
 ماسواه عليه ؟ فالجواب ان الكلام في أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن
 قد تقدم ، واذا كنا قد بينا ان شعر امرئ القيس - وهو كبيرهم الذي يقرون
 بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأنمون به ، وامامهم الذي
 يرجعون اليه - كيف سبيله وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن ، وانه
 لا يخلط بشعره غبار ذلك النظم ، وهو اذا لحظ ذلك كان كما قال :

فأصبحت من ليلي الغداة كناظر مع الصبح في اعجاز نجم مغرب
 وكما قال أيضا :

راحت مشرقة ورحت مغربا ففى التقاء مشرق ومغرب
 واذا كنا قد أبنا في القاعدة ما علمت ، وفصلنا لك في شعره ما عرفت ،
 لم نحتاج الى أن تسلك على شعر شاعر ^(١) وكلام كل بليغ ، والقليل يدل على

(١) لعل العبارة ممكنة (على شعر كل شاعر) الخ

الكثير، وقد بينا في الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب، ومزينة عليها في النظم والترتيب، وتقدمه عليها في كل حكمة وبراعة، ثم تكلمنا على التفضيل^(١) على ما شهدت، ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال

ثم نقول: أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحري في الصنعة به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي أو تسوية ما بينهما مالا يطعم معه في تقديمه على امرئ القيس ومن في طبقته، وكذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله، ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره، وإنما يقع بينهم التباين اليسير والتفاوت القليل، فلما إن يقن ظان أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، وإنما هي خواطر يغير بعضها على بعض، ويقتدي فيها بعض ببعض، والغرض الذي يرمي إليه ويصح التوافي عليه في الجملة فهو قبيل متداول وجنس متنازع، وشريعة مورودة، وطريقة مسلوكة. ألا ترى إلى ما روى عن الحسين بن الضحاك، قال: أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها:

وشاطري اللسان محتاق السكرية زان الجون بالناس
كانه - نصب كأسه - قر يكرع في بعض أنجم الفلك

قال: فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها:

أعذل أعتبت الإمام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقيها^(٢) أجرها فلم أكن لبأبي أمير المؤمنين وأشربا
نجوزها عن عقارا ترى لها إلى الشرف الأعلى شعاعا مطمئنا

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال: فقلت له: يا أبا علي هذه مصالاة، فقال: أنظن أنه يرى لك معنى وأناحي؟ فتأمل هذا الأخذ وهذا الوضع وهذا الانباع، أما الخليل فقد رأى

(١) في الخطبة (التفصيل) (٢) في الخطبة (لناقيا)

الابداع في المعنى ، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنه ، لان قوله « يكرع » ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت ، وفيه احوالة ، لان القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم ، وأما قول أبي نواس : « اذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المثانة وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح . وقوله : « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه أو من مثله لأقامة الوزن ، ثم قوله : « خلته يقبل في داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله ، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك ، وإنما يقتضيه ليلا ، فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع والملاحاة . وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

ومفهمي تمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
نصبو الكئوس الى مراشفه ونحن في يده الى الحبس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل الخمس
وكانها وكان شاربها قر يقبل عارض الشمس

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب ، الا انه تمكن من إبراده في بيتين وهما - مع سبقها الى المعنى - أتيا به في بيت واحد

وانما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة يقع فيها التنافس والتعارض ، والاطماع متعلقة بها ، والهم تسمو اليها ، وهي ألف طباعنا وطوع مدار كنا وبجائس لسلامنا ، واعجاب قوم بذخو هذا وما يجري أبحراه ، وإيثار أقوام لشعر البحري على أبي تمام وعبد الصمد وابن الرومي ، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه ، وذهاب قوم عن المعرفة ، ليس بأمر يضربنا ، ولا يجب يعترض على افهامنا

ونحن نعلم الى بعض قصائد البحري فنتكلم عليها كما تكلمنا على

قصيدة امرئ القيس ، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة ، ويستخلص من سر المعرفة سريرة ، ويعلم كيف تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقاربة ، ونجمل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره

سمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول : سمعت أبا الفضل بن العميد يقول :
سمعت أبا مسلم الرستمي يقول : سمعت البحتري يذكر أن أجود شعره قاله :
أهلاً بذلك الخيال المقبل

قال : وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول : أجود شعره هو قوله في الشيب :
زجر له لو كان ينزجر

قال : وسئلت عن ذلك فقلت : البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره
فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا ، قوله :
أهلاً بذلك الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل
برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل
البيت الأول ، في قوله « ذلك الخيال » نقل روح وتطويل وحشو ،
وغيره أصلح له . وأخف منه قول الصنوبري :

أهلاً بذلك الزور من زور شمس بدت في فلك الدور
وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير إلى الكرازة ،
وتعود ملاحظته بذلك ملوحة ، وفصاحته عيباً ، وبراعته تكلفاً ، وسلاسته تعسفاً
وملاسته تلويهاً وتعقيداً ، فهذا فصل . وفيه شيء آخر ، وهو أن هذا الخطاب إنما
يستقيم معها خوطب به الخيال حال إقباله ، فأما أن يحكى الحال التي كانت وصلفت
على هذه العيادة ففيه عهدة ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة ، وهو
لبراعته وحذقه في هذه الصنعة . يعاق نحو هذا الكلام ولا ينظر في عواقبه ،
لأن ملاحظة قوله تفتي على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور . ثم قوله :

« فعل الذي نهواه أو لم يفعل » ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ، وإن كانت كسائر الكلام . فأما بيته الثاني فهو عظيم الموقع في البهجة ، وبديع المأخذ حسن الرواء ، أنيق المنظر والمسمع ، بملأ القلب والفهم ، ويفرح الخاطر ، وترى بشاشته في العروق . وكان البحرني يسمي نحو هذه الآيات عروق الذهب ، وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة ، وحذقه في البلاغة : ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل ، مع الديباجة الحسنة والرونق المليح ، وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لاشراقه في مسراه كما يقال انه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينور ما مر به وهذا غلو في الصناعة إلا ان ذكره بطن وجرة حشو ، وفي ذكره خلل ، لان النور القليل يؤثر في بطون الارض وما اطمان منها ، بخلاف ما يؤثر في غيرها ، فلم يكن من سبيله ان يربط ذلك بطن وجرة ، وتحديد المكان على الحشو احمد من تحديد امره . الفيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ، لم يقنع بذكر حد حق حده بأربعة حدود ، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى - ان أخل بمحدد - أن يكون بيعه فاسداً او شرطه باطلاً ، فهذا باب . ثم انما يذكر الخيال بخفاء الاثر ودقة المطلب ولطف المسالك ، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه اصل الباب . ولا يجوز أن بقدر مقدر أن البحرني قطع الكلام الاول وابتداً بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة ، لان هذا القطع ان كان فعلاً كان خارجاً به عن النظم المأمود ولم يكن مبدعاً ، ثم كان لا تكون فيه فائدة ، لان كل برق شعل وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام ، وكان لا يكون بما نظمه مفيداً ولا متقدماً ، وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود ، ومعنى مستحب غير مقصود ، ويعلم بمثله أنه طلب العبارات ، وتعليق القول بالاشارات ، وهذا من الشعر الجفنس الذي يحلو لفظه وتتل فوائده . كقول القائل :

ولما قضينا من رمى كل حاجة ومتح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهارى رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رانح^(١)
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الاباطح
هذه الفاظ بعيدة المطالع والمقاطع، حلوة الهجائي والمواقع، قليلة المعاني
والفوائد. فأما قول البحرى بعد ذلك :

من غادة مُنعت ونعم نيلها فلو أنها بُذلت لنا لم تُبذل
كالبدر غير مخبل والفصن غير مميل والدعص غير مهيل
فالبيت الاول - على ما تكلف فيه من المطابقة، ونجشم الصنعة - ألفاظه
أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وضع العبارات
في مثله، ولو قل هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام
وتحويله، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان. وأما البيت الثاني، فأت
تلم أن التشبيه بالبدر والفصن والدعص أمر منقول متداول، ولا فضيلة في
التشبيه بنحو ذلك، وإنما يبقى تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في البيت، وهذا أيضا
قريب لأن المعنى مكرر، ويبقى له بعد ذلك شيء آخر وهو عمله لترصيع في
البيت كله، إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضرب من التكلف، لأن التشبيه
بالفصن كاف، فإذا زاد فقال كالفصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف
خللا، وكان ذلك زيادة يستغنى عنها، وكذلك قوله « كالدعص غير مهيل »
لأنه إذا انهدل خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفا اليه، فلا يكون
لتقييده معنى، وأما قوله :

ما الحسن عندك يا سعاد بمُحسِن فيما أتاه ولا الجمال بمُجَمِّل
عذل المشوق وان من سبها الهوى في حيث نجهله لججاج العذل
قوله - في البيت الاول - « عندك » حشو، وليس بواقع ولا بديع

(١) في غير هذا الكتاب : وشدت على دهم المطايا رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رانح

وفيه كلفة ، والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء ، وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنهما لم يحسن في تهيبج وجهه وتهيبم قلبه ، وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب . ويدت كشاحم أسلم من هذا وأبعد من الخلل ، وهو قوله :

— بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجلال عليك وقفا أجلي
وأما البيت الثاني فإن قوله « في حيث » حشا بقوله في كلامه ، ووقع ذلك مستنكراً وحشياً نافراً عن طبعه ، جافياً في وضعه ، فهو كركعة من جلد في ديباج حسن ، فهو يحو حسنه ، ويأتي على جماله . ثم في المعنى شيء لان لجاج العذل لا يدل على هوى مجهول ، ولو كان مجهولاً لم يهتدوا للعذل عليه ، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعاني ، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل ، فإن ذلك جعلهم الذلول ، وقولهم المكرر . وأما قوله :

ماذا عليك من انتظار متيم بل ما يضررك وقفة في منزل
ان سيل عى عن الجواب فلم يطق رجعاً فكيف يكون ان لم يُسأل
لست أنكر حسن البيتين ، وظرفهما ورشاقتهما ولطفهما وما هما بهجتهما ، إلا أن البيت الاول منقطع عن الكلام المتقدم ضرباً من الانقطاع ، لأنه لم يجر لمشافهة المعادل ذكر ، وإنما جرى ذكر العذل على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم ، ثم الذي ذكره من الانتظار - وإن كان مليحاً في اللفظ - فهو في المعنى متكلف ، لان الواقف في الدار لا ينتظر أمراً ، وإنما يقف تحسراً وتذلاً ونحيباً والشطر الاخير من البيت واقع والاول مستجلب ، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لان وضع البيت يقتضي تقدم عذل على الوقوف ، ولم يحصل ذلك المذكوراً في شعره من قبل ، وأما البيت الثاني فإنه معلق بالاول لا يستقل الا به ، وهم

يعيبون وقوف البيت على غيره ، ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصراع التام بنفسه - بحيث لا يقف على المصراع الآخر - أفضل وأتم وأحسن . وقوله : « فكيف يكون ان لم يسأل » مليح جداً ، ولا تستمر ملاحظة ما قبله عليه ، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه ، وفيه شيء آخر ، لانه لا يصلح أن يكون السؤال سبباً لان يعيا عن الجواب ، وظاهر القول يقتضيه . فأما قوله :

لا تكلفن لي الدموع فإن لي دمعا ينم عليه ان لم يفضل

ولقد سكنت الى الصدود من النوى والشرى أرى عند طعم الحنظل

وكذلك طرفة حين أوجس ضربة في الرأس هان عليه فصد الاكل

فالبيت الاول يخالف لما عليه مذهبه في طلب الاسعاد بالدموع ، والاصعاف بالبكا . ومخالف لاول كلامه ، لانه يفيد مخاطبة المعتدل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق . وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها ، ولذلك قال الله عز وجل « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم ، والالفاظ كيف أطاعهم ، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم ، وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب ، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن ، فصار بهذا أبلغ خطابهم . ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعر أو كلام متكلم . وأما قوله : « والشرى أرى » فانه وإن كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهي كلمة ثقيلة على اللسان ، وهم يذمون نحو هذا ، كما عابوا على أبي تمام قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ومتى ^(١) ما لمته لمته وحدي
ذكر لي الصاحب بن عباد أنه جرى أبا الفضل بن العميد في محاسن

(١) الذي في كتب المعاني (ولانا ما لته)

القصيدة حتي انتهى الى هذا البيت فذكر له أن قوله « أمدحه أمدحه » معيب
لثقله من جهة تدارك حروف الخلق ، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا
في هذه النكتة فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف . ثم أن قوله « عند
أكل الخنظل » ليس بحسن ولا واقع . وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه
غريب في طباعه ، نافر من جملة شعره ، وفيه كرازة ونجاجة وإن كان المعنى
صالحا ، فأما قوله :

وأغر في الزمن البهيم محجل قد رخت منه على أغر محجل
كالهيككل المبسئ إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيككل

فالبيت الاول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من
الكلام ، وعامة خروجه نحو هذا ، وهو غير بارع في هذا الباب ، وهذا مذموم
معيب منه ، لأن من كان صناعته الشعر ، وهو يأكل به ، وتغافل عما يرفع
اليه في كل قصيدة ، واستهان بإحكامه وتجويده مع تتبعه لأن يكون عامة ما
يصدر به أشعاره من النسيب عشرة أبيات وتنبه للصنعة الكثيرة وتركيب
العبارات وتنقيح الالفاظ وتزويرها . كان ذلك أدخل في عيبه ، وأدل على
تقصيره أو قصوره ، وأنه لا يقع له الخروج منه ، وأما قوله : « وأغر في الزمن
البهيم محجل » فإن ذكر التحجيل في المسدوح قريب ، وليس بالجميل ، وقد
يمكن أن يقال أنه إذا قرن بالأغر حسن ، وجرى مجراه ، وانخرط في سلكه ،
وأهوى الى مضماره ، ولم يُنكر مسكاته من جواره ، فهذا عذر ، والعمدول عنه
أحسن . وإنما أراد أن يرد المعجز على المصدر ويأتي بوجه التجنيس ، وفيه
شيء ، لأن ظاهر كلامه يوم أنه قد صار مشطي الأغر الاول ورأى على عليه ، ولو
سلم من ذلك لم يكن فيه ما يقوت حدود الشعراء وأقويل الناس ، فأما ذكر
الهيككل في البيت الثاني وردة اعجز البيت عليه وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة
وعمل شيئا حتى كرها فهي كلمة فيها ثقل ، ونحن نجد إذا أرادوا أن يصنعوا

نحو هذا قلوا : « ما هو الا صورة ، وما هو الا مثال ، وما هو الا دمية وما هو الا ظبية » ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان ، وقد استدرك هو ايضا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل كان أولى وأجمل ، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها ، وأفرعوهم بذكرها ، وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم . وأما قوله :

وإني الضلوع يشد عقد حزامه يوم اللقاء على معم مخول
أخواله للرستميين بفارس وجدوده للتبعيين بموكل
نبيل المحزم مما يدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع ، وقوله : « يشد عقد حزامه » داخل في التكلف والتعسف ، لا يقبل من مثله وان قبلناه من غيره لانه ينتبع الالفاظ وينقدها نقداً شديداً ، فهلا قال يشد حزامه ، أو يأتي بحشو آخر سوى العقد ، فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله « يوم اللقاء » حشو آخر لا يحتاج اليه ، وأما البيت الثاني فعنائه أصلح من الفاظه ، لأنها غير مجانسة لطباعه ، وفيها غلظ ونفار ، وأما قوله :

بهوى كانهوى للعقاب وقد رأت صيدا وينقض انقضا الأجدل
متوجس برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصل
ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حسنونه الاحول
البيت الاول صالح ، وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل ما لم يقولوه بل هو منقول ، وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها ، وقد يقولون : « يفوت الطرف ، ويسبق الريح ، ويجاري الوم ، ويكر النظر » ولولا أن الاتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض المכתاب لنقلت ^(١) لك جملة مما ذهبوا اليه في هذا المعنى ، فتنبع تعلم أنه لم

(١) كنا في الخطبة وهو الصواب . وفي المطبوعة (قلت)

يأت فيها بما يحل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد . على أن الهوى يذكر عند الانقضاء خاصة ، وليس للفرس هذه الصفة في الحقيقة ، إلا أن يشبه حده في العدو بحالة انقضاء البازي والعقاب ، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيراتها . وأما البيت الثاني فقوله ان الاذنين كأنهما من ورق موصل ، وإنما أراد بذلك حدتهما ، وسرعة حر كتهما واحساسهما بالصوت كما يحس الورق بحفيف الريح ، وظاهر التشبيه غير واقع ، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وإنما يجري مجرى المضمن ، وليس هذا البيت برائق اللفظ ولا مشاكلا فيه لطبعه غير قوله متوجس برقيقتين فان هذا القدر هو حسن . وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد ، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره ، وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى . والذي وقع البحتري في هذا البيت عندي ليس بجيد في لفظ ولا معنى ، وهو بيت وحش جداً قد صار قذى في عين هذه القصيدة ، بل وخزا فيها ووبالا عليها ، قد كدر صفاءها وأذهب بهاءها وماءها وطمس بظلمته سناها ، وما وجه مدح للفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه اذا وردها ؟ كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار في قوله :

ولا يشرب الماء الا بدم

واذا كان لهذا الباب مجانباً ، وعن هذا سمت بعيداً ، فهلا وصفها بعزة الشرب كما وصفها المتنبي في قوله :

وصول الى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل :

وإني للماء الذي شابه القذى اذا كثرت ورآده لعيوف

نم قوله « ولو أوردته يوماً » حشوبارد ثم قوله « حمدويه الاحول » وحش

جدا ، فما أمقت هذا البيت وأبغضه ، وما أثقله وأسغفه ، وأما غطى على عينه عيبه وزين له إirاده طمعه في الاستطراد ، وهلا طمع فيه على وجه لا يفض من بهجة كلامه ولا معنى ألفاظه ، فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر ، فأما قوله : ذَنْبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ مُعْرِفٍ وَعَرَفٍ كَالْقِنَاعِ الْمَسْبِلِ تنوهم الجوزاء في أرساغه والبدر فوق جبينه المتهلل فالبيت الاول وحش الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام ، وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه الى بعض ، وأما يتصنع لغير هذا الوجه ، وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء فقد حذف الوصل غير منسق ولا مليح ، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله . ثم قوله : « كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ » قبيح في تحقيق التشبيه ، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة إلا على اضرار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء . وقوله : « يذب عن معرف وعرف » ليس بحسن ولا صادق ، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس ، وهو قوله :

فويق الأرض ليس بأعزل

وأما قوله : « تنوهم الجوزاء في ارساغه » فهو تشبيه مليح ولكن لم يسبق اليه ولا انفرد به ، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الفرة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الامور وتشبيه المجول لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها ، وأمور مليحة قد ذهبوا اليها ، وليس ذلك موضع كلامنا ، فتنبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك

واعلم انا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس لانه ذكر عشرين بيتاً في ذلك ، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطا الى حد لا يفوت طريقة الشعراء ولو تنبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل علمت أنه وان جمع فأوعى وحشر فنادى ففيهم من سبقه في ميدانه ، ومنهم من ساواه في شأوه ، ومنهم من دانه

فالقبييل واحد ، والنسيج متشاكل ، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك لنقف على ما قلت ، فتجاوزنا الى الكلام على ما قاله في المدح في هذه القصيدة ، قال :

محمد بن علي الشرف الذي لا يلحظُ الجوزاءَ إلا من عل
وسحابة لولا تتابع مُزْنِها فينا لراح المزن غير مُبْخَل
والجود يعذله عليه حاتم سرفاً ولا جود لمن لم يُعْذَل

البيت الأول منقطع عما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني وفصله بينها وقلة تأنيه لتجويد الخروج والوصل ، ذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة ، وهذا اذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها ، وأما اذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذرا . وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء مما سبق اليه ، وهو شيء مشترك فيه ، وقد قالوا في نحوه : ان مجده مماء السماء وقالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه ، وكما قال المتنبي :

وعزمة بعثتها همة زحل من تحتها يمكن الترب من زحل

وحدثني اسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل ثم قال لمن حضره : أتدري من هذا ؟ هو الذي قال في أبيه البحتري : « لمحمد بن القاسم الشرف الذي » فذلك يدل على استعظامه للبيت (١) بما مدح به من البيت . والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب ، وهو حديث مكرر ليس ينفك مديح شاعر منه ، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة ابداع كما قد يقع لهم في نحوه هذا ، ولكنه لم يتصنع له وأرسله ارسالا ، وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلط ، وذلك ان المزن انما يبخل اذا منع نيله ، فذلك موجود في كل نيل ممنوح ، وكلاهما محمود مع الاسعاف ، فان أسعف أحدها ومنع الآخر لم يمكن التشبيه ، وان كان انما شبه غالب أحدهما بالآخر ، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه حتى أنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال ،

(١) في الخطبة (البيت)

فهذا جيد ، وليس في حمل الالفاظ على الاشارة الى هذا شيء ، والبيت الثالث وان كان معناه مكرراً فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه ألفاظ المبتدئين ، وأما قوله :

فضل وافضال وما أخذ للمدى بعد المدى كالفاضل المنفضل
سار اذا ادّج العنقا الى الندى لا يصنع المعروف غير معجل
فالبيت الاول منقطع عما قبله وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس
ببديع لتكرره على كل لسان ، وقوله : « ما أخذ المدى » فانه لفظ مليح ، وهو
كقول القائل :

قد أركب الآلة بعد الآلة

وروي : الحالة بعد الحالة . وكقول امرئ القيس :

سمو حباب الماء حالاً على حال

ولكنها طريقة مذلة فهو فيها تابع . وأما البيت الثاني ف قريب في اللفظ
والمعنى ، وقوله : « لا يصنع المعروف » ليس بلفظ محمود . وأما قوله :
عال على نظر الحسود كأنما جذبتهم أفراد النجوم بأحبل
أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول
فالبيت الاول منكر جديداً في جر النجوم بالارسان موضعه الى العلو
والتكلف فيه واقم ، والبيت الثاني أجنبي عنه ، بعيد منه ، وافتتاحه رديء
وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانه والتوقيف ؟ والبيتان أجنبيان من
كلامه ، غريبان في قصيدته ، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد ،
ألا ترى أنه قال بعد ذلك :

نفسى فداؤك يا محمد من فتى يوفي على ظلم الخطوب فتعجلي
اني أريد أبا سعيد ، والعدى يعني وبين صحابه المتهلل
كأن هذا ليس من طبعه ولا من سبكه ، وقوله :

مضر الجزيرة كلها وريبعة الـ خابور توعدي وأزْدُ الموصل
 قد جدت بالطرف الجواد فتنه لأخيك من ادُد أيبك بمنصل
 البيت الاول حسن المعنى وان كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه
 التحسين، وهذا المعنى قد يمكن إبراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق
 منه ، كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا
 والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه بلطف ،
 وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه : « فتنه لأخيك من أدد أيبك » ومن أخذه
 بهذا التعرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره . وأما قوله
 بعد ذلك في وصف السيف ، يقول :

بقناول الروح البعيد منالها عفوا ويفتح في القضاء المقفل
 بابانة في كل حتف مظلم وهداية في كل نفس مجمل
 ماض وان لم يمض به فارس بطل ومصقول وان لم يصقل
 ليس لفظ البيت الاول بمضاهٍ لديباجة شعره ، ولا له بهجة نظمه ، لظهور
 أمر التكلف عليه ، وتبين ثقل فيه ، وأما القضاء المقفل وفتح فكلام غير
 محمود ولا مرضي ، واستعارة لو لم يستمرها كانت أولى به ، وهلا عيب عليه
 كما عيب على أبي تمام قوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا
 وقالوا يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه ، وقد اتبعه البحري
 في استعارة الاخدع ولوعا باتباعه فقال في الفتح :

واني وقد بلغتني الشرف العلا وأهنت من ذل المطامع أخدعي
 ان شيطانه حيث زين له هذه الكلمة تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة
 خبيثٌ ماردٌ وردي معاند ، أراد أن يطلق أعنة الذم فيه ، ويسرح جيوش

العتب اليه ، ولم يقنع بقفل القضاء حتي جعل للمحتف ظلة تجلي بالسيف ،
وجعل السيف هاديا في النفس المجهل الذي لا يهتدي اليه ، وليس في هذا مع
تحسين اللفظ وتنميقه شيء لأن السلاح وان كان معيبا فانه يهتدي الى النفس ،
وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله :

كأن الهام في الميعجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الاسنة من هموم فما يَحْطُرْنَ الا في الفؤاد

فالاقتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن . وفي البيت الاول شيء
آخر ، وذلك أن قوله : « ويفتح في القضاء » في هذا الموضع حشو رديء
يلحق بصاحبه اللكنة ، ويلزمه المعجزة . وأما البيت الثالث فانه أصلح هذه
الابيات وان كان ذكر الفارس حشوا وتكلفاً ولفوا لأن هذا لا يتغير بالفارس
والراجل ، على أنه ليس فيه بديع . وأما قوله :

يفشى الوغى والترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمقل
مصغ الى حكم الردي فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يعدل
متوقد يبري بأول ضربة ما أدركت ولو أنها في يندبل

البيتان الاولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه وهي طريقه الذي
يجتنيها ، وذلك من السبك الكتابي والكلام المعتدل ، الا أنه لم يبدع فيها
شيء ، وقد زيد عليه فيها ، ومن قصد الى أن يكل عشرة أبيات في وصف
السيف فليس من حكمه أن يأتي بأشياء منقولة وأمور مذكورة ، وسبيله أن
يفرب ويبعد كما أبدع المتنبي في قوله :

سلمه الر كض بعد وهن بنجد فتصدي للفيث أهل الحجاز
هذا في باب صفاته وأضوائه وكثرة مائه ، وكقوله :
ريان لو قذف الذي أَسْتَيْتَهُ لجري من المهجات بحر مزبد

وقوله : « مصغ الى حكم الردى » ان تأملته مقلوب ، كان ينبغي أن يقول : يصغى الردى الى حكمه ، كما قال الآخر :

فالسيف يأمر والاقدار تنتظر

وقوله : « واذا قضى لم يعدل » متكرر على أنفسهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى ، والبيت الثالث سليم وهو كالاولين في خلوه عن البديع ، فأما قوله :

فاذا أصاب فكل شيء مقتل واذا أصيب فما له من مقتل

وكأنما سود النمل وحرها دبت بأيد في قراء وأرجل

البيت الأول يقصد به صنعة اللفظ ، وهو في المعنى متفاوت ، لأن المضرب قد لا يكون مقتلاً ، وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبي وأنه بضده :

يقتل السيف في جسم القتيل به والسيف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصف الرمح طعنا وتقطيع السيف

ضرباً . وفي قوله : « واذا أصيب فما له من مقتل » تمسف لأنه يريد بذلك أنه لا يتكسر ، فالتعبير بما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه يتضمن التكلف وضرباً من المحال ، وليس بالنادر ، والذي عليه الجملة ما حكيناه عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان :

يقصف في الفارس السهمري وصدر الحسام فريقاً فريقاً

والبيت الثاني أيضاً هو معنى مكرر على السنة الشعراء ، وأما تصنيعه بسود

النمل وحرها فليس بشيء ، ولعله أراد بالجر الذر ، والتفصيل بارد ، والاعراب

به منكر ، وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الثريا بجذاء

رأسي على سواء ، أو منحرفاً قدر شبر أو نصف شبر أو اصبع أو ما يقارب ذلك

فقيل له : هذا من الورع الذي يبغضه الله ، ويمقتة الناس ، ورب زيادة كانت

نقصانا ، وصفة النمل بالسواد والحمر في هذا من ذلك الجنس وعليه خرج بقية البيت في قوله :

دبت بأيدي في قراه وأرجل

وكان يكفي ذكر الأرجل عن ذكر الأيدي ، ووصف الفرند بمدب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم ، وأما قوله :

وكان شاهره اذا استضوى به الزحفان يعصى بالسماك الأعزل

حملت حمائله القديمة بقلة من عهد عاد غضة لم تذبل

البيت الأول منهما فيه ضرب من التكاف ، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم ، وإنما ^(١) يقول : « قريشد على الرجال بكوكب » فجعل ذلك السكوكب السماك ، واحتاج إلى أن يجعله أعزل للقافية ولو لم يحتج إلى ذلك كان خيرا له ، لأن هذه الصفة في هذا الموضع تفضيه من الموضع وموضع التكلف الذي ادعينا الخشوش الذي ذكره من قوله : « اذا استضوى به الزحفان » وكان يكفي أن يقول : كان صاحبه يعصى بالسماك ، وهذا وإن كان قد عمل فيه للفظ فهو لغو على ما بينا ، وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله : « حمائله قديمة » ولا فضيلة له في ذلك ، ثم تشبيه السيف بالبقلة من تشبيهات العامة والكلام الرذل للنذل ، لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن . ثم انظر إلى هذا المقطع الذي هو بالعلي أشبه منه بالفصاحة ، وإلى اللكنة أقرب منه إلى البراعة ، وقد بينا أن مراعاة الفوانح والخطوات والمطام والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بد منه ، وإن الإخلال بذلك يخل بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ، ويأخذ مائه وبهائه

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلف ما سطرت ، لأن هذا القليل قليل

(١) كنا بالاصابين ، ولعل العبارة (وإنما أراد أن يقول)

موضوع متعمل مصنوع ، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر الى جملة القصة
ثم يتعمل الالفاظ ، ولا ينظر بعد ذلك الى مواقعها ، ولا يتأمل مطارحها . وقد
يقصد تارة الى تحقيق الاغراض ، وتصوير المعاني التي في النفوس ، ولكنه
يلحق بأصل بابه ، ويميل بك الى موضعه ، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها
التفاضل . وان أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء
قد تصرفوا في ذلك بما يقع اليك . ان كنت من أهل الصنعة . مما يطول على نقله
وكذلك في السيف . وذكر لي بعض أهل الادب أن أحسن قطعة في السيف
قول أبي الهول الجيري :

حاز صمصامة الزبيدي من بيـن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان - فيما ميمنا - خير ما أطبقت عليه الجفون
أخضر اللون بين برديه حد من دُعا ف تيمس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت له القعاف القيون
فاذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكذب نسبين
يستطير الابصار كالتبس المشعل لا تستقيم فيه العيون
وكان الفرند والرونق الجا ري في صحفته ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيم جاء يعصى به ونعم القرين
ما يبالي اذا انتحاه بضرب اشمال سطت به أم يمين
وانما يوازن شعر البحري بشعر شاعر من طبقته ومن أهل عصره
ومن هو في مضماره أو في منزلته . ومعرفة أجناس الكلام والوقوف على اسراره
والوقوف على مقداره شيء . وان كان عزيزاً وأمر وان كان بعيداً فهو سهل على
أهله مستجيب لاصحابه مطيع لاربابه ينفذون الحروف ويعرفون الصروف وانما
تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحري وأبي تمام وابن الرومي وغيره . ونحن

وان كنا نفضل البحري بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه
وتقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله ، والشعر
قبيل ملتبس مستدرك وأمر ممكن منطبع ونظم القرآن عل عن أن يعلق به
الوهم أو يسمو اليه الفكر أو يطعم فيه طامع أو يطلبه طالب « لا يأتية الباطل من
بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وكنيت قد ذكرت لك قبل هذا
أنك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف
على ما ذكرنا والنفوذ فيما وصفنا والا فاجلس في مجلس المتقدين وارض بمواقف
المتحيرين ونصحت لك حيث قلت انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن
الجواهر وبدائع الياقوت وذقاق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور .
ومقدماتها وهل يقطع سميت البلاد من غير اهتداء فيها ولكل شيء طريق يتوصل
اليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة
بجميع ما وصفت لك واغمض وأدق وألطف . وتصوير ما في النفس وتشكيل ما
في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالاشارة ويحصل بالدلالة
والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح فللاشارات أيضا مراتب
واللسان منازل ورب وصف بصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ،
ورب وصف بربو عليه ويتعمده ، ورب وصف يقصر عنه . ثم اذا صدق
الوصف انقسم الى صحة واقتان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء
وتقريب والى غير ذلك من الوجوه . وكل مذهب وطريق له باب وسبيل :
فوصف الجلة الواقعة كقوله تعالى (١٨ : ١٨) « لو اطلعت عليهم لوليت منهم
فراراً ولملت منهم رعباً » والتفسير كقوله (١٨ : ٤٧) « ويوم نسير الجبال ونرى
الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » الى آخر الآيات في هذا
المعنى وكنحو قوله (٢٢ : ١ - ٢) « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء

عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكَّاراً وما هم بسُكَّارٌ ولكن عذاب الله شديد» هذا مما يصور الشيء على جهته ويمثل أهوال ذلك اليوم . ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا ٢٦ : ٥٠ - ٥١ « قالوا لاضرير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين » وقال في موضع آخر (٧ : ١٢٥ - ١٢٦) « انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا ان آمنَّا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » وهذا ينبغي عن كلام الحزين لما ناله ، الجازع لما مسه ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى (٣٦ : ٨٢) « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وقوله ٢ : ٦٥ « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » وكقوله (٢٦ : ٦٣) « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم » . وتقصي أقسام ذلك مما يطول ، ولم أقصد استيفاء ذلك وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل واشترت اليك بما اشترت لتتأمل

وانما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحري لان الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من في عصره ، ومنهم من يدعى له الاعجاز غلواً ، ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا . والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكرر بقوله وتدعى كلامه من شبهاتهم ، وعباراته مضافا الى ما عندهم من ترهاتهم ، فبيتنا قدر درجته وموضع رتبته وحد كلامه ، وهيهات أن يكون المظموع فيه كلاً يوس منه ، وان يكون الليل كالنهار ، والباطل كالحق ، وكلام رب العالمين ككلام البشر

فان قل قائل : فقد قدح الملحد في نظم القرآن ، وادعى عليه الخلل في البيان ، وأضاف اليه الخطأ في المعنى واللفظ وقال ما قل ؛ فهل من فصل ؟

قيل الكلام على مطاعن المملحة في القرآن مما قد سئفنا اليه، وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه في التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافياً. وإن سهل الله لنا مانوينا من املاء معاني القرآن ذكرنا في ذلك ما يشبهه من الجنس الذي ذكره، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فأنما يتم على جهل القوم بالمعاني أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قل النبي ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيننا، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والاختلاف، والحكم بين فضل زهير والنايفة، أو الفضل بين البحري وأصحابه، ولم يعرف سخر مسيلة في نظمه ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه كشعر أبي العيس في جملة الشعر وشعر علي بن صلاة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بيننا

فإن قال قائل فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر والأبلغ، قيل له هذا أيضاً خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الأدباء. ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب ويفرد له باب، وليس من قبيل مانحن فيه بسبيل. وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمدّه في الفصاحة والنظم العجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيت بما قضيت به في القرآن دون غيره من الكلام، وإنما لم يصح هذا السؤال وما ندكر فيه من أشعار في نهاية الحسن وخطب ورسائل في غاية الفضل لانا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع

التزاع فيها ، والمساماة عليها ، والتنافس في طرقها ، والتنافر في بابها ، وكان
 اللبون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريباً والتفاوت خفيفاً وذلك
 القدر من السبق ان ذهب عن الواحد لم يأس منه الباقون ، ولم ينقطع الطمع
 في مثله وليس كذلك سميت القرآن لانه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته ،
 والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته ، وان السكل في المعجز عنه على حد واحد .
 وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه ،
 والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت نجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه
 معيباً ونطاق قوله ضيقاً حتى يستعين بكلام غيره ويفزع الى ما يوشح به كلامه
 من بيت سائر ومتصل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة . وأما
 كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة ، فاذا أخرج الى تطويل
 الكلام خالياً عن شيء يستعين به - فيخلط بقوله من قول غيره - كان كلاماً
 ككلام غيره . فان أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القرآن وفي
 الرد على النصارى وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل نجد
 في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع او كلام مليح . على أن متأخري الكتاب
 قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم
 من أبر عليه اذ باراه هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه
 فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه لانه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفى فيها
 على حدود مذهبه ويكملها على شروط صنمته ولا يقتصر على أن يأتي بالاسطر
 من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعل في كتبه متى ذكر من كلامه سطرّاً أتبعه
 من كلام الناس أوراقاً ، واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً .
 وهذا يدل على أن الشيء اذا استحسن اتبع ، واذا استملح قصد له وتعمد .
 وهذا الشيء يرجع الى الاخذ بالفضل والتنافس في التقدم . فلو كان في مقدور

البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها ، وجواب لا حد لكثرتها ، لانهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه ، ثم الى قطع المحامين دونه عنه ، أو تنفيرهم عليه وادخال الشبهات على قلوبهم ، وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس ، ونصب الارواح والاختار بالأموال والقراري في وجه عداوته ويستغفون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربتة وطول منافسته ومجادبته . وهذا الذي عرضناه على قلبك يكفي ان هديت لرشدك ، ويشفي ان دلت على قصدك ، ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد ، انه لا معرفة الا بهدائه ، ولا عصمة الا بكفايته ، وهو على ما يشاء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

فصل

فان قل قائل قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن وان كان من بعدم من أهل الاعصار لم يعجزوا . قيل هذا سؤال معروف وقد أجيب عنه بوجوه منها ما هو صواب ومنها ما فيه خلل لان من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدررون على معارضته في الاخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسألة ، لانا ذكرنا أن نظمه معجز لا يُقدر عليه ، فاذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده . والوجه أن يقال فيه طرق : منها انا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الاتيان بمثله فن بعدم أعجز ، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدم وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم فاما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا . ومنها انا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار

كعلمنا بعجز أهل العصر الاول والطريق في العلم بكل واحد من الامرين طريق واحد لان التحدي في الكل على جهة واحدة ، والتناظر في الطباع على حد ، والتكلف على منهاج لا يختلف ، ولذلك قل الله تبارك وتعالى (١٧ : ٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

فصل

﴿ في التحدي ﴾

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات اذا ظهرت على الانبياء أن يدعوا فيها انها من دلائلهم وآياتهم لانه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية لان النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر سوى البرهان الذي يظهر عليه فيستدل به على صدقه ، فاذا ذكر لهم ان هذه آيتي وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه ، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهاناً له ، وليس يكون ذلك معجزاً الا بأن يتحداهم الى أن يأتوا بمثله فاذا تحداهم وبأن عجزهم صار ذلك معجزاً وانما احتيج في باب القرآن الى التحدي لان من الناس من لا يعرف كونه معجزاً فانما يعرف أولاً اعجازه بطريقة ، لان الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته وانما يحتاج الى علم وطريق يتوصل به الى معرفة كونه معجزاً فان كان لا يعرف بعضهم اعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به متى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي اليه والتفريع به والتفكير منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب المعصى ثعباناً تتلف ما يأفكون . وأما من كان من أهل صنعة العربية والتقدم في البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فانه يعرف - حين يسمعه - عجزه عن الاتيان

بعثله ويعرف أيضا أهل عصره ممن هو في طبقة أو يدانيه في صناعته عجزهم عنه فلا يحتاج الى التحدي حتى يعلم به كونه معجزاً ولو كان أهل الصنعة الذين صنفهم ما بيننا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يحز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي اليه واذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي الى التحدي الى أقصاهم وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً . وهذا القول ان قيل أخش ما يكون من الخطأ ، فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة في معرفة اعجاز القرآن بانفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وعلق البحر بأن ذلك معجز . وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة يعرف بها كونه معجزاً فيساوي حينئذ أهل الصنعة فيكون استدلالهما في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواء اذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه ، فلما من قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي اليه فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات حتى يقع التحدي اليها والحض عليها ثم يقع المعجز عنها فيعلم حينئذ انها معجزات وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى ما يفى عن الاعادة . ويبين ما ذكرناه في غير البليغ ان الاعجمي الآن لا يعرف اعجاز القرآن إلا بأمر زائدة على الاعجمي الذي كان في ذلك الزمان مشاهداً له لان من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولاً أن العرب عجزوا عنه وانما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقله اليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه ويحتاج في النقل الى شروط وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً كذلك لا يصير معجزاً بان يعلم العربي الذي ليس ببليغ انهم قد عجزوا عنه بأبلغهم بل هو معجز في نفسه وانما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه

فصل

﴿ في قدر المعجز من القرآن ﴾

الذي ذهب اليه عامة أصحابنا وهو قول أبي الحسن الأشعري في كتبه ان أقل ما يُعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها قال فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة وان كانت سورة الكونر فذلك معجز قال ولم يقد دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها فهي معجزة . وقد حكى عنهم نحو قولنا الا ان منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات الكثيرة وقد علمنا أنه تحداهم تحديا الى السور كلها ولم يخص . ولم يأتوا بالشئ منها بمثل ، فلم أن جميع ذلك معجز وأما قوله عز وجل ٥٢ : ٣٤ « فليأتوا بحديث مثله » فليس يخالف لهذا لأن الحديث التام لا تنحصر حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكده ما ذهب اليه أصحابنا ويؤيده وان كان قد يتأول قوله فليأتوا بحديث مثله على أن يكون راجعا الى القبيل دون التفصيل وكذلك يحمل قوله تعالى ١٧ : ٨٨ « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » على القبيل لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الاتيان بجميعه من أوله الى آخره

فان قيل : هل تعرفون اعجاز السور القصار بما تعرفون به اعجاز السور الطوال ، وهل تعرفون اعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ما تعرفون به اعجاز سورة البقرة ونحوها . فالجواب ان أبا الحسن الأشعري رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بمعجز

للعرب عنها . وصمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول ان ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفاً والطريقة الاولى أسدٌ وليس هذا الذي ذكرناه أخيراً بمناف له لأنه لا يمتنع ان يعلم اعجازه بطرق مختلفة تتوافق عليه وتجتمع فيه واعلم ان تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة لأن الطريقة الاولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزاً موجود في كل سورة صفرت أو كبرت فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً . والطريقة الاخيرة تتضمن تعذر معرفة اعجاز القرآن بالطريقة التي سلكتها في بناء من التفصيل الذي بينا فيما قمر به في الكلام الفصاحة وتبين فيه البلاغة حتى يعلم ذلك بوجه آخر فيستوي في هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزاً حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلقاء من التقدم في الصنعة وهذا غير ممتنع، ألا ترى أن الاعجاز في بعض السور والآيات أظهر وفي بعضها اغض ، وقد لا يحتاج في النظر في حال بعضها الى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى يتبين له الاعجاز ويفتقر في بعضها الى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل الى المطلب ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه في بعض السور فيحتاج أن يفرع فيه الى اجماع أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه فان ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقع له جز عن الايتان بمثل السور القصار أو الآيات بهذا المقدار قلنا له ان الاعجاز قد حصل بما بيناه وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه ثم فيه شيء آخر وهو ان هذا سؤال لا يستقيم للملحد لانه يزعم أنه ليس في القرآن كله اعجاز فكيف يجوز ان يناظره على تفصيله واذا ثبت لنا معه اعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه وثبتت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة الادلة والمعجزات . ونحن نعلم أن اعجاز البعض بما بيناه والبعض الآخر بانه

إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا، لأننا عرفنا في البعض الاعجاز بما
بينما ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك وليس بممتنع اختلاف حل الكلام
حتى يكون الاعجاز على بعضه أظهر وفي بعضه أغمض ومن آمن ببعض دون
بعض كان مذموماً على ما قال الله تعالى ٢: ٨٥ « افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون
ببعض » وقال ١٧: ٨٢ « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »
فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع وإن كنا
نقول أنه يدل على أن الشفاء في جميعه

واعلم أن الكلام يقع فيه الابلغ والبليغ ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة
« بتيمة » ويسمون البيت الواحد « يتيماً » ، سمعت اسماعيل بن عباد يقول
سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلباً يقول سمعت الفراء يقول :
العرب تسمى البيت الواحد يتيماً ، وكذلك يقال الدرة اليتيمة لانفرادها
فاذا بلغ البيتين والثلاثة فهي تنفة وإلى العشرة تسمى قطعة وإذا بلغ العشرين
استحق أن يسمى قصيداً وذلك مأخوذ من اللحن القصيد وهو المترام بعضه على
بعض وهو ضد الرار ومثله الرئيد . انتهت الحكاية ثم استشهد بقول ليبيد :
فتذكراً ثقلاً رثيداً بعد ما ألفت ذكاه يمينها في كافر

يريد بيض النعام لأنّه ينضد ببعضه على بعض . وكذلك يقع في الكلام البيت
الوحشي والنادر والمثل السائر والمعنى الغريب والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه
فيتفق له ويصادفه قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريته في ذلك : أن هذا مما
لا سبب له بخضه وإنما سببه القرارة في أصل الصنعة والتقدم في عيون المعرفة ،
فاذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب وما يشد عن تفصيل
الحساب ، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز فإن ذلك صحيح

فصل

﴿ في أنه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة ﴾

ذهب ابو الحسن الاشعري الى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم باستدلال وهذا المذهب محكى عن المخالفين . والذي نقوله في هذا أن الاعجمي لا يمكنه ان يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بليفا . فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الاتيان بمثله ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه ، كما انه اذا علم الواحد منها أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالا

فصل

﴿ فيما يتعلق به الاعجاز ﴾

ان قل قائل بينوا لنا ما الذي وقع التحدي اليه ، أهر الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك . قيل الذي نحدد به أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن ، منظومة كنظمها ، متتابعة كمتابعتها ، مطردة كاطرادها ولم يتقدم الى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له ، وان كان كذلك فالتحدي واقع الى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها ، وهي حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبي ﷺ . ولا

يجب أن يقدر مقدر أو يظن ظان أنا حين قلنا ان القراءان معجز فانه نهداهم الى أن يأتوا بمثله أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات . وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزاً لكونه عبارة عن الكلام القديم ، لان التوراة والانجيل عبارة عن الكلام القديم . وليس ذلك بمعجز في النظم والتأليف ، وكذلك مادون الآية - كاللفظة - عبارة عن كلامه وايست بمنفردا بمعجزة ، وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم الى مثل كلامه القديم القائم بنفسه ، والذي عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره ، وعلى ذلك اكثر مذاهب الناس ، ولم يجب أن نفسر وفذكر موجب هذا المذهب الذي حكيناه وما يتصل به لانه خارج عن غرض كتابنا لان الاعجاز وقع في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه ، والى مثل هذا النظم وقع التحدي ، فبيناً وجه ذلك وكيفية ما يتصور القول فيه ، وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة أو حروف غير منظومة ، أو شيء مؤلف أو غير ذلك مما يصح أن يتوهم على ما سبق من اطلاق القول فيما مضى

فصل

﴿ في وصف وجوه من البلاغة ﴾

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام :
الابحاز ، والنشبيه ، والاستعارة ، والتسلاؤم ، والغواصل ، والتجانس ،
والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ؛ فاما الابحاز فاما يحسن
مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى ، فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة ،
وذلك ينقسم الى حذف وقصر فالحذف الاسقاط للتخفيف كقوله (١٢ : ٨٢)

« وأسأل القرية » وقوله (٤٧ : ٢١) : « طاعة وقول معروف » وحذف
الجواب كقوله (١٣ : ٣١) : « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت
به الأرض أو كلم به الموتى » كأنه قيل لكان هذا القرآن . والحذف أبلغ من
الذكر لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب . والابحاز بالقصود
كقوله (٢ : ١٧٩) : « ولستم في القصاص حياة » وقوله (٦٣ : ٤) :
« يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » وقوله (١٠ : ٢٣) : « انما بفيكم
على أنفسكم » (٤٣ : ٣٥) « ولا يحيق الذكر السيء إلا بأهله » . واطناب
فيه بلاغة ، فأما التطويل ففيه عي . وأما التشبيه بالعقد على أن أحد
الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل كقوله : (٢٤ : ٣٩) « والذين
كفروا أعمالهم كمراب يقبعة يحسبها الظآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا »
وقوله (١٤ : ١٨) : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به
الريح في يوم عاصف » وقوله (٧ : ١٧١) : « واذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه
ظلة » وقوله : (١٠ : ٢٤) « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء
فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض
زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتانا أمرنا ليلا أو نهاراً فجملناها
حصيداً كأن لم تغن بالأمس » وقوله (٥٤ : ١٩ و ٢٠) : « انا أرسلنا
عليهم ريحاً صرصرأ في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »
وقوله (٥٥ : ٣٧) : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله :
(٥٧ : ٢٠) « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في
الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم
يكون حطاماً » وقوله (٥٧ : ٢١) : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض »
وقوله (٦٢ : ٥) : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل

أسفارا « وقوله تعالى : (٧ : ١٧٦) « فتنكه كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث » وقوله (٦٩ : ٧) : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » وقوله : (٢٩ : ٤١) : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » وقوله (٥٥ : ٢٤) : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » وقوله (٥٥ : ١٤) : « خلق الانسان من صلصال كالفخار » ونحو ذلك

ومن ذلك باب الاستعارة وهو بيان التشبيه كقوله تعالى (٢٥ : ٢٣) « وقد منّا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » وكقوله : (١٥ : ٩٤) « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وكقوله : (٦٩ : ١١) « انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية » وقوله : (٧ : ١٥٤) « ولما سكنت عن موسى الغضب » وكقوله (١٧ : ١٢) « فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » وقوله (٢١ : ١٨) : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » فالدمغ والقذف مستعار . وقوله : (٣٦ : ٣٧) « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وقوله (٨ : ٧) « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » وقوله (٤١ : ٥١) « فذودعاء عريض » وقوله (٤٧ : ٤) « حتى تضع الحرب أوزارها » وقوله (٨١ : ١٨) « والصبح اذا تنفس » وقوله (٢ : ٢١٤) « مستهم البأساء والضراء » وقوله (٣ : ١٨٧) « فنبذوه وراء ظهورهم » وقوله (١٠ : ٢٤) « أتماها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيدا » وقوله (٢١ : ١٥) « حصيدا خامدين » وقوله (٢٦ : ٢٢٥) : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » وقوله (٣٣ : ٤٦) « وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقوله (١٧ : ٢٩) « ولا نجعل يدك مغلولة الى عنقك » وقوله (٣٢ : ٢١) « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » وقوله (١٨ : ١١)

« فضر بنا على آذانهم » يريد ان لا إحساس بآذانهم من غير صمم . وقوله
(٧ : ١٤٩) : « ولما سقط في أيديهم » وهذا أوقع من اللفظ الظاهر وأبلغ
من الكلام الموضوع

وأما التلاؤم فهو تعديل الحروف في التأليف . وهو نقيض التنافر ؛
كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا هو من شعر الجن حروفه متنافرة لا يمكن انشاده الا بتنعيم فيه .
والتلاؤم على ضربين : أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله :

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم

رميم التي قالت لجارات بينها ضمنت لكم أن لا يزال بهيم

ألارب يوم لورمتني رميمها ولكن عهدي بالفضال قديم

قالوا والمتلاؤم في الطبقة العليا القرآن كله وان كان بعض الناس أحسن
إحساسا من بعض كما أن بعضهم يفظن للعوزون بخلاف بعض . والتلاؤم حسن
الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ووقع المعنى في القلب وذلك كالخط الحسن
والبيان الشافي والمتنافر كالخط القبيح فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان
وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع وبصيرا
بجودة الكلام كما يظهر له أعلى حايقة الشعر . والمتنافر ذهب التحليل الى أنه من
بعد شديد أو قرب شديد ، فاذا بعد فهو كالظفر واذا قرب جداً كان بمنزلة مشي
انقيد ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها

وأما الفواصل فهي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها افهام المعاني .
وفيها بلاغة . والاسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى والفواصل تابعة للمعاني
والسجع كقول مسيلة . ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على

حروف متقاربة ولا تحتل القوافي ما تحتل الفواصل لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة لان الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن؛ وأما التجانس فانه بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد وهو على وجهين مزاجية، ومناسبة، فالمزاجية كقوله تعالى (٢: ١٩٤) «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وقوله (٥٤: ٣) «ومكروا ومكر الله» وكقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجاهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما المناسبة فهي كقوله تعالى (١٢٧: ٩) «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم» وقوله (٣٧: ٢٤) «يخافون يوما تنقلب فيه القلوب والاebصار» وأما التصريف فهو تصرف الكلام في المعاني كتصرفه في الدلالات المختلفة كتصرف الملك في معاني الصفات فصرف في معنى مالك ومالك وذي الملكوت والمليك وفي معنى التملك والتلك والاملاك؛ وتصرف المعنى في الدلالات المختلفة كما كرر من قصة موسى في مواضع

وأما التضمن فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه وذلك على وجهين تضمنين توجبه البنية كقولنا معلوم يوجب أنه لابد من عالم وتضمنين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح الا به كالصفة بضارب يدل على مضروب. والتضمنين كله إيجاز، والتضمنين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضا إيجاز. وذكر ان بسم الله الرحمن الرحيم من باب التضمن لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الامور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى أو التبرك باسمه، وأما المبالغة فهي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه: منها مبالغة في الصفة المبينة لذلك، كقولك رحمن عدل عن ذلك للمبالغة، وكقوله غفار وكذلك فعال وفعل كقولك شكور وغفور، وفعل كقولك رحيم وقدير، ومن

ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة كقوله (٣٩ : ٦٢) : « خالق كل شيء »
وكقوله (١٦ : ٢٦) « فأتى الله بنيانهم من القواعد » وكقوله (٧ : ٤٠)
« ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » وكقوله (٣٤ : ٢٤)
« وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » وقد يدخل فيه الحذف الذي
تقدم ذكره للبلاغة

وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام : كلام ، وحال ، وإشارة ،
وعلاوة . ويقع النفاذ في البيان ولذلك قل عز من قائل (١ : ٥٥ - ٤) :
« الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وقيل أعيا من بقل ، مستل
عن ظبية في يده بكم اشتراها فأراد أن يقول بأحد عشر فأشار بيديه ماداً
أصابعه العشرة ثم أدخل لمساته وأفلت الظبي من يده
ثم البيان على مراتب قلنا قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ
اعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب
مما مضت أمثله في الشعر ، ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه
التي عددناها في هذا الفصل . واعلم أن الذي بيناه قبل هذا وذهبنا إليه هو سديد
وهو أن هذه الأمور تنقسم فمنها ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ويدرك بالتعلم
فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة اعجاز القرآن به ، وأما مالا سبيل إليه بالتعلم
والتعمل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على اعجازه ونحن نضرب لذلك أمثلة
لنقف على ما ذهبنا إليه ، وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه
نمرف به البلاغة وذلك مسلم ، ولكن ان قلنا ما وقع من التشبيه في القرآن
معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الأشعار مالا يخفى عليك . وأنت
تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تنبع في هذا
مالم يتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء . وكذلك كثير من

وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره، فإن كان انما يعني هذا القائل انه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه الى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة، فهذا مما لا نأباه بل نقول به وانما ننكر أن يقول قائل ان بعض هذه الوجوه يانفرادها قد حصل فيه الاعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضى اليه مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز وإن التشبيه معجز وإن التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة. فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه فإن ادعى اعجازها لالفاظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا أدعي اعجازها لموضع التشبيه، وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك الى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه فلا من تلك الوجوه ما قد بينا أن الاعجاز يتعلق به كالبيان وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ولذلك قل (٣ : ١٣٨) « هذا بيان للناس » وقال (١٦ : ٨٩) : « تبينا انك لشيء » وقال (٢٦ : ١٩٥) « بلسان عربي مبين » فكرر في مواضع ذكره أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جهم وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهة حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة. وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويهيج ويقلق ويؤنس ويظلم ويؤيس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الاعطاف، ويستميل نحوه الامعاء، ويورث الارباحية والعزة وقد يبعث على بذل المال شجاعة وجودا، ويربي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدا، وله مسالك في النفوس

لطيفة ، ومداخل الى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب في نظمه ، ويتنزل في
موقعه ويجري على سميت مطلعته ومقطعه يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته ،
وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارده . وقد ينبغي الكلام عن
محل صاحبه ، ويدل على مكان متكلمه ، وينبئ على عظيم شأن أهله ، وعلى
علو محله . ألا ترى أن الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ،
واذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمدحاجة ، وأخبر
عن خبيثه في المراياة . وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع
فيعلم وجه صدوره ويدل على كنهه وحقيقته . وقد يصدر عن المثبته ويخرج عن
المتصنع ، فيعرف من حاله ما ظن انه يخفيه ، ويظهر من أمره خلاف ما بيديه ،
وأنت تجد لقول المتنبي :

فانليل والليل والبيداء تعرفني والحرب والظعن والقرطاس والقلم
من الوقع في القلب - لما تعلم أنه من أهل الشجاعة - مالا تجده للبحرني
في قوله :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي بمقرقس والمشرقية شهدي
وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره مالا تجده لغيره
لأنه اذا قال :

اذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
وقل :

قد ترديت بالمكارم دهرأ وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش اذا غزوت وحيدا ووحيد في الجحفل الجرار

وقال :

أيها السائل عن الحسب الاطيب ما فوقه خلقي مزيد
نحن آل الرسول والعنزة الحق وأهل القرى فماذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليه وأنته رايات ليل سود
وكا أنشدنا الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز
قصيدته التي يقول فيها :

أنا ابن الذي سادهم في الحياة وسادهم بي تحت الثرى
ومالي في أحد مرغب بلى في يرغب كل الورى
وأصهر للمجد والمكرما ت اذا كحلت أعين بالسرى
فانظر في القصيدة كلها ثم في جميع شعره تعلم أنه ملك الشعر ، وأنه يليق
به من الفخر خاصة ثم مما يتبعه مما يتعاطاه ما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواءه .
ولم أحب أن أكثر عليك فاطول السكتاب بما يخرج عن غرضه ، وكأترى
من قول أبي فراس الحمداني في نفسك اذا قل :

ولا أصبح الحي اظلوف بفارة ولا الجيش ما لم يأتته قبلي النذر
ويا رب دار لم تخفني منيعه طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الاذيال نحوي لقيتها فلم يلتقها جاني اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله وأبت ولم يكشف لبياتها ستر
وما راح يطعنني بأثوابه الغنى ولا بات يثني عن الكرم الفقر
وما حاجتى في المال أبني وفوره اذا لم أفر وفري فلا وفر الوفير
والشيء اذا صدر من أهله ، وبدا من أصله ، وانتسب الى ذويه سلم في
نفسه ، وبانت نغمته وشواهد أثر الاستحقاق فيه . واذا صدر من متكلف
وبدا من متصنع بان أثر الغرابة عليه ، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه ، وعرف

شمائل التخير منه

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة ، وتمكن البطالة ،
وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله من أمر المغازلة ووصف الخمر والخمار كما
نعرف ، وموقع كلام ذي الرمة في وصف المهامه والبوادي والجمال والانساع
والأزمة ، وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرباع والوحش ففكر
في قوله :

دع الأطلال تسفيها الجنوب	وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا	نخب بها النجيبية والنجيب
بلاد نبتها عشر وطلح	وأكثر صيدها ضيع وذئب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا	ولا عيشا فعيثهم جديب
دع الألبان يشربها رجال	رقيق العيش عندهم غريب
إذا راب الحليب قبل عليه	ولا تخرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول	يطوف بكأسها ساقى أديب
كان هدبرها في الدن يحكي	قراءة القس قابله الصليب
أعاذل أقصري عن طول لومي	فراجى توفى عندي يخيب
تعييبن الذنوب ، وأي حر	من الفتيان ليس له ذنوب

وقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
وسمعت صاحب اسماعيل ابن عباد يقول : سمعت براكويه الزنجاني
يقول : أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الاعشى :
ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل نطيق وداعا أيها الرجل
وكان وصف فيها الطلل قال براكويه : فقال لي هلال فقلت بديها :
إذا سمعت فتى يبكي على طلل من أهل زنجان فاعلم انه طلل

وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشيء في معدنه أعز، وفي مظهره أحسن، وإلى أصله أنزع، وبأسبابه اليق، وهو يدل على ما صدر منه، وينبئ ما انتج عنه، ويكون قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله، ولكل شيء حد ومذهب، ولكل كلام سبيل ومنهج. وقد ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام مسيلة ما أخبرتك به، فقال: ان هذا كلام لم يخرج من إله فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الالهية يتميز عما لم يكن كذلك. ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان ولو لم يكن فيه إلا ما من به الله على خلقه بقوله: (٥٥: ٣ و ٤) «خلق الانسان علماً البيان». فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى (٤٣: ٥) «افنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين» في شدة التنبيه على تركهم الحق والاعراض عنه وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله (٤٣: ٣٩) «ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنفسكم في العذاب مشركون» وهذا بليغ في التحسير. وقوله (٦: ٢٨) «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه» وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر معودين لخالفه النهي والأمر. وقوله (٤٣: ٦٧) «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» هو في نهاية الوضع من الخلقة الاعلى التقوى. وقوله (٣٩: ٥٦) «أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله» وهذا نهاية في التحذير من التفريط. وقوله: (٤١: ٤٠) «أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آتياً يوم القيامة اعمالاً ما شئت انه بما تعملون بصير» هو النهاية في الوعيد والتهديد. وقوله (٤٣: ٤٤ - ٤٥) «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل، وترامهم يمرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي» نهاية في الوعيد. وقوله (٤٣: ٧١):

« وفيها ما تشبهه الأنفس وتلذذ الأعين وأنتم فيها خالدون » نهاية في الترغيب .
 وقوله (٢٣ : ٩١) : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من الله إذا ذهب
 كل شيء بما خلق ولعل بعضهم على بعض » وكذلك قوله (٢١ : ٢٢) : « لو
 كان فيهما آلهة إلا الله لفسدوا » نهاية في الحجاج . وقوله (٦٧ : ١٣ : ١٤)
 « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » ألا يعلم من خلق وهو
 اللطيف الخبير » نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات . ولا وجه للتطويل فإن بيان
 الجميع في الرفعة وكبر المنزلة على سواء . وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن
 يتعلق به الاعجاز وهو معجز من القرآن وما حكيما عن صاحب الكلام من المبالغة
 في اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام
 غيره وليس ذلك بمعجز ، بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه
 من اللفظ ينتمى الاعجاز . وتضمن المعاني أيضا قد يتعلق به الاعجاز إذا حصلت
 للمباراة طريق البلاغة في أعلى درجاتها . وأما الفواصل فقد بينا أنه يصح أن
 يتعلق بها الاعجاز ، وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا وبيننا في تلاؤم
 الكلام ما سبق من صحة تعلق الاعجاز به . والتصرف في الاستعارة البديعة
 يصح أن يتعلق به الاعجاز كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام ، لأن البلاغة
 في كل واحد من البابين تجري مجرى واحداً وتأخذ مأخذاً مفرداً

وأما الإيجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما اعجاز كما يتعلق بالحقائق .
 والاستعارة والبيان في كل واحد منهما مالا يضبط حده ولا يقدر قدره ، ولا
 يمكن التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم ، ولا يتطرق إلى غوره بالنسب ، وكل
 ما يمكن تعلمه ويتهياً تلفظه ويمكن تخليصه ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب
 وقوع الاعجاز به ، ولذلك قلنا أن السجع مما ليس يلتمس فيه الاعجاز لأن ذلك
 أمر محدود وسبيل مورود ، ومتى تدرب الإنسان به واعتاده لم يستصعب عليه

أن يجعل جميع كلامه منه . وكذلك التجنيس والتطويق متى أخذنا أحدهما وطلب وجههما استوفى ماشاء ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه ، كما أولع بذلك أبو تمام والبحري ، وإن كان البحري أشغف بالمطابق وأقل طلبا للمجانس

فإن قل قائل هلا قلت إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل إليها بالتعلم ولا تلك بالعمل كما ذكرتم في البيان وغير ذلك ، قلنا لو عمد إلى كتاب الاجناس ونظر في كتاب العين لم يتعذر عليه التجنيس الكثير ، فاما الاطباق فهو أقرب منه وليس كذلك البيان والوجوه التي رأينا الاعجاز فيها لأنها لا تستوفى بالتعلم

فإن قيل : فالبيان قديمتعلم . قيل إن الذي يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس وتتناهى فيه العادات وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل الثقل وإن الناس يتقاربون في ذلك فيرمون فيه إلى حد فاذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطي ولم يقدرُوا على التعمدي إلا أن يحصل ما يخرق العادة وينقض العرف ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان ويتجاوز الوهم ويشذ عن الصنعة ويقذفه الطبع في النادر القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التي تتفق في ديوان شاعر ، والفقرة تتفق في لسان كاتب حتى يكون للشاعر ابن بيت أو بيتين أو قطعة أو قطعتين ، والاديب شهيد كلمة أو كلمتين وذلك أمر قليل ولو كان كلامه كله يطرده على ذلك المسلك ويستمر على ذلك المنهج أمكن أن يدعى فيه الاعجاز ولكنك إن كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الأبيات الشوارد والكلمات الغرائد وأمهاث القلائد فإن أردت أن تجد قصيده كلها وحشية وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية لم تجد ذلك في الدواوين ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين ، ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة وإنما انكرنا أن يقدرُوا على

مثل نظم سورة أو نحوها وأحلنا أن يتمكنوا من حشد في البلاغة ومقدار في الخطابة، وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن وإن لم يكن له حكم الشعر. فاما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة طالت أو قصرت وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تقبين بأقل من ذلك فلذلك لم نحكم بعجزه وما صح أن تقبين فيه البلاغة ومحصولها الإبانة في الإبداع عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا وبليغا، فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى إلى أمر بمعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات. وقد ذكرنا أنه يجنس وأسلوبه مبين لسائر كلامهم ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر

فان قيل: فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تبين جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف ما لو طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد إلى ذلك سبيلا وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة، لأنه يتفق من المتأخر فيها، فهلا قلتم أنه إذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وصحت تلك القطعة، وهلا قلتم إن القرآن من هذا الباب؟ فالجواب أنا لم نجد أحدا بلغ الحد الذي وصفت في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأثورة، وبلاغتهم مروية، وحكمهم مشهورة. وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وأثل،

ومثل شق وسطيح وغيرهم ، كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ، ولا خطابة خطيب ، ولا براعة شاعر مفلق ، ولا كتابة كاتب مدقق . فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة أو يشاكلة في الاعجاز مع ما وقع من التحدي إليه المدة الطويلة ، وتقدم من التقرير والمجازاة الامد المديد ، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الامر ، وعجز الكل عنه ووقفوا دونه حيارى يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببه ، ويعلمون نقصهم وان أغفل قوم وجهه ، رأينا أنه ناقض للعادة ورأينا أنه خارق المعروف في الخيلة وأخرق العادة انما يقع بالمعجزات على وجه اقامة البرهان على النبوات وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية اليه صادق فيما يدعيه من نبوته ومحق في قوله ومصيب في هديه ، قد سادت له الحجة البالغة والكلمة التامة والبرهان النير والدليل البين

فصل

﴿ في حقيقة المعجز ﴾

معنى قولنا ان القرآن معجز على أصولنا انه لا يقدر العباد عليه وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ لا يصح دخوله تحت قدرة العباد وانما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل عجزهم عن فعل الاجسام . فنحن لا تقدر على ذلك وان لم يصح وصفنا باننا عاجزون عن ذلك حقيقة ، وكذلك معجزات سائر الانبياء على هذا . فلما لم يقدر عليه أحد شبه بما يعجز عنه العاجز ، وانما لا يقدر العباد على الاتيان بمثله لانه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز ، وقد أجرى العادة

أن يتعذر فعل ذلك منه وان لا يقدرُوا عليه ولو كان غير خارج عن العادة
لأتوا بمثله وعرضوا عليه من كلام فصحاتهم وبلغاتهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا
بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأصاليب نظامهم وزالت
أطعامهم عنه. وقد كنا بيننا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه
النظم المستحسنة في الاوزان المطربة للسمع ولا يحتاج في مثله الى توقيف وانه
يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب، فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوا
أنواع الاوزان والقوافي ثم وقفوا على حسن ذلك وقدرُوا عليه بتوفيق الله
عز وجل وهو الذي جمع خواطرهم عليه وهداهم له وهياً ذراعهم اليه، ولكنه
أقدرهم على حد محدود وغاية في العرف مضروبة، لعله بان سيجعل القرآن
معجزاً، ودل على عظم شأنه بأنهم قدرُوا على ما بينا من التأليف وعلى ما وصفنا
من النظم من غير توقيف ولا اقتضاء أثر ولا تحدى اليه ولا تقريع، فلو كان هذا
من ذلك القليل أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه لم نزل أطعامهم عنه، ولم
يدهشوا عند وروده عليهم فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم في الوقت وكان يدعو
اليه سنين كثيرة وقل عز من قائل (٣٥: ٣٧) : « أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه
من تذكري وجاءكم النذير » وبظهور المعجز عنه بعد طول التقريع والتحدي بان
أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرُون عليه. وقد ذكرنا أن العرب كانت
تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لان ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا
الى تجربة عند سماع القرآن، وهذا في البقاء منهم دون المتأخرين في الصنعة
والذي ذكرناه يدلك على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن وكل من
جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن
القرآن معجز بحال ولو لم يكن جرى في العلوم أنه سيجعل للقرآن معجزاً لكان
يجوز أن تجري عادات الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما
ينضمونه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي فلا

يخرج من أن يكون متاولاً على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة صابقة تقدر في معجزته أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالاته واعجازه وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه . ثم قال (٤١ : ٤٤) : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي » فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطيبهم أو كانوا يعتدرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يقين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا نجاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على ما نبينه في وجه هذا الفصل . إلى أن قال (٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم أن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور وفكرهما مرد القول فيها فليأمل المتأمل ما دللناه عليه بحججه كذلك . ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥١ و ٥٠) « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر أن الكتاب آية من آياته ، وعلم من أعلامه ، وأن ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء صلوات الله عليهم . ويدل عليه قوله عز وجل (٢٥ : ١) : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » وقوله (٤٢ : ٢٤) : « أم يقولون افتري على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » فدل على أنه جعل قلبه مستودعاً لوحيه ومستنزلاً لكتابه ، وأنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره وكان له حكم دلالاته على تحقيق الحق وإبطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها ، فبان بهذا وبظواهر ما قلنا أن بناء نبوته

ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى . وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها الا بأمر زائد عليها ووصف منضاف إليها ، لان نظمها ليس معجزاً وان كان ما تضمنته من الاخبار عن الغائبات والغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لانه يشار كها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه . وحل في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه ، لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وان اختلف الحال في ذلك عند البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة وأما نظم القرآن فقد قل أصحابنا ان الله تعالى يقدر على نظم القرآن في الرتبة التي لا مزيد عليها ، وقال مخالفونا إن هذا غير ممتنع لان فيه من الكلمات الشريفة الجامعة المعاني البديعة وانضاف الى ذلك حسن الموقع فيجب أن يكون قد بلغ النهاية ، لانه عندهم وان زاد على ما في العادة فإن الزائد عليها وان تفاوت فلا بد من أن ينتهي الى حد لا مزيد عليه . والذي نقول انه لا يمتنع أن يقال انه يقدر الله تعالى على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله ، وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه

فصل

﴿ في كلام النبي ﷺ وأمره اتصل بالاعجاز ﴾

ان قل قائل اذا كان النبي ﷺ أفصح العرب - وقد قل هذا في حديث مشهور وهو صادق في قوله - فهلا قلتم ان القرآن من نظمه لقدرة في الفصاحة على

مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل قد علمنا انه لم يتحدث لم الى مثل قوله وفصاحته، والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشعراء وكلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الاعجاز. وقد بينا قبل هذا انا اذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنشور وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس، ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي ﷺ معجز وان كان دون القرآن في الاعجاز

فان قيل لولا ان كلامه معجز لم يشبهه على ابن مسعود الفصل بين الموعظتين وبين غيرهما من القرآن، وكذلك لم يشبهه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا؟ ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط، وقد يجوز أن يكون شذوذاً عن مصحفه لا لأنه نفاه من القرآن بل عول على حفظ الكل اياه على أن الذي يروونه خبر واحد لا يسكن اليه في مثل هذا ولا يعمل عليه ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت ثملا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الادعية على ظهر مصحفه. وهذا نحو ما يذكره الجاهل من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما، ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة كما يغلط الحافظ في حروف وينسى. وما لا نحيظه على الحفاظ مما لم نجزه عليه ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك وكان يظهر وينتشر فقد تناظروا في أقل من هذا وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل فكيف يجوز أن يقع للتخفيف فيه وقد علمنا اجماعهم على ما جمعه في المصحف فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالاجماع المتقرر والاتفاق المعروف ويجوز أن يكون النقل أشبه عليه لانه خالف في النظم والترتيب فلم يثبتها في آخر القرآن والاختلاف بينهم في موضع الاثبات غير الكلام في الاصل ألا ترى أنهم قد اختلفوا في

أول ما نزل من القرآن فهم من قل قوله (٩٦ : ١) : « اقرأ باسم ربك »
ومنه من قل (٧٤ : ١) : « يا أيها المدثر » ومنهم من قل فاتحة الكتاب .
واختلفوا أيضا في آخر ما أنزل فقال ابن عباس : (١١٠ : ١) « اذا جاء نصر
الله » وقالت عائشة : سورة المائدة وقال البراء بن عازب : آخر ما أنزل سورة
براءة ، و قل سعيد بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى (٢ : ٢٨١) : « واتقوا
يوما تُرجعون فيه الى الله » . و قل السدي : آخر ما أنزل (٩ : ١٢٩)
« فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت » ويجوز أن يكون في
مثل هذا خلاف وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع . ولو كان القرآن من
كلامه لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل
واحد وكانوا يعارضونه لانا قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام
النبي ﷺ لا يخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكبير ، ولا يخفى
كلام من جنس أوزان كلامهم ، وليس كذلك نظم القرآن لانه خارج من
جميع ذلك

فان قيل لو كان على ما ادعيتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره .
قبل معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه والفرق بينه وبين غيره من الاوزان
نحتاج الى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب وان كان النظم المختلف الشديد التباين
اذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة الا ان كل وزن وقبيل اذا أردنا تمييزه من
غيره احتجنا فيه الى الفكرة والتأمل . فان قيل لو كان معجزاً لم يختلف أهل
الملة في وجه اعجازه . قيل قد يثبت الشيء دليلاً وان اختلفوا في وجه دلالة
البرهان كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون
والاجتماع والافتراق . فاما المخالفون فانه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام
الله لان مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله

عز وجل في كونه معجزاً ، لانه ان خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله أمكنه أن يأتي بما له هذه الرتبة وكان متعذراً على غيره لفقد علمه بكيفية النظم . وليس القوم بحاجة عن الكلام ولا عن النظم والتأليف . والمعنى المؤثر عندهم في تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم ، وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرُونَ عليه . والمفحم - يعلم كيفية الاوزان واختلافها وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر ، وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة وإذا قالوا الشمر جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة وقد ترد في شعر المبتدى والمتأخر في الخلق النظمه الشريفه والبيت النادر مما لا يتفق للشاعر المتقدم . والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يغني ، ويحتاج معه الى مادة من الطبع وتوفيق من الاصل . وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة ثم يتفق لاحدهما من اللطف في الصنعة ما لا يتفق في الآخر . وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم ، وكذلك أهل الرمي يتفاضلون في الاصابة مع العلم بكيفية الاصابة . وإذا وجدت للشاعر بيتاً أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس لا يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه لانه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد ، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة ، ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها ، وان كان كذلك علم أن هذا لا يرجع الى قدرة من العلم ، ولنا قول : انه يستغنى عن العلم في النظم بل يكفي علم به في الجملة ثم يقف الامر على القدرة . وهذا يبين لك بانه قد يعلم الخط فيكتب سطرًا فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذر والعلم حاصل . وكذلك قد يحسن كيفية الخط ويميز الجيد منه من الردي ولا يمكنه أن يأتي بأرفع درجات الجيد . وقد يعلم قوم كيفية ادارة الاقلام وكيفية تصوير الخط ثم يتفاوتون في التفصيل ويختلفون في التصوير والزمهم أصحابنا أن يقولوا

بقدرتنا على احداث الاجسام وانما يتعذر وقوع ذلك منا لاننا لانعلم الاسباب التي اذا عرفنا ايقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الاجسام . وقد ذهب بعض المخالفين الى ان العادة انتقضت بان أنزله جبريل فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه ومن قبله لم يكن معجزا . وهذا قول أبي هاشم وهو ظاهر الخطأ لانه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن وان لم يتعذر عليهم فعل مثله وانما تعذر بانزاله ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله وان كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله فهو قولنا

وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينا لان معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله وكان ذلك متعذرا قبل نزوله وبعده فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه فمنهم من قال ليس لذلك نهاية كالمعد فلا يمكن أن يقال انه لا يتأتى قول قصيدة الا وقد قيلت من قبل ، ومنهم من قال ان ما جرت به العادة فله نهاية وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه ، وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد في العادة ولا سبيل الى تجاوزه ولا يقدر فان القرآن خرق العادة فزاد عليها

فصل

ان قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه ؟ قيل لا بد من ذلك لانا لو لم نعلم أن النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن وظهر ذلك من جهته لم يمكن أن يستدل به على نبوته . وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فأتى بها بلدا وادعى ظهورها عليه وانها معجزة له لم تقم الحجة عليهم حتى يبعثوا أو يقيموا أنها ظهرت عليه ، وقد حققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ وظهر من جهته وجعله علما على نبوته وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا

فصل

قد ذكرنا في الابانة عن معجز القرآن وجيزاً من القول رجونا أن يكفي وأملنا أن يقنع ، والكلام في أوصافه ان استقصي بعيد الاطراف واسع الاكشاف لعل شأنه وشريف مكانه والذي سطرناه في الكتاب وان كان موجزاً ومأمليناه فيه وان كان خفيفاً فانه ينبه على الطريقة ويدل على الوجه ويهدي الى الحجة ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الاسهاب فيه عيباً والا كثر في وصفه تقصيراً وقد قال الحكيم - وسئل عن البليغ متى يكون عيباً - فقال متى وصف هوى أو حبيباً . وضل اعرابي في سفر له ليلاً وطلع القمر فاهتدى به ، فقال ما أقول لك ؟ أقول رفعك الله وقد رفعك ؟ أم أقول نورك الله وقد نورك ؟ أم أقول جملك الله وقد جملك ؟ ولولا أن العقول تختلف والافهام تنباين والمعارف تتفاضل لم نحتاج الى ما تكلفنا ولكن الناس يتفاوتون في المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا في معرفة هذا الفن أو يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم لانصاله باسباب وتعلقه بعلوم غامضة الغور عميقة القمر كثيرة المذاهب قليلة الطلاب ضعيفة الاصحاب ، وبحسب تأتي مواقعه يقع الافهام دونه ، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال : أنشدني المتنبى لنفسه القطعة التي يقول فيها :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم
وأنشدني الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا بعض مشايخنا للبحري :
أهز بالشعر أقواماً ذوي سنة لو أنهم ضربوا بالسيف ماشعروا

على نحت القوافي من مقاطعها وما على لهم أن تفهم البقر
 فإذا كان نقد الكلام كله صعباً وتمييزه شديداً والوقوع على اختلاف
 فنونه متعذراً ، وهذا في كلام الآدمي ، فما ظنك بكلام رب العالمين
 قد أبنا لك أن من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام لا يعرف
 من البلاغة إلا القليل ولا يظن منها إلا اليسير . ومن زعم أن البديع يقتصر
 على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر فهو متطرف . بلى إن كانوا يقولون إن
 هذه من وجوه البلاغة وقرر البديع وأصول اللطيف ، وإن ما يجري مجرى
 ذلك ويشاكله مالحق بالأصل ومردود على القاعدة فهذا قريب . وقد بينا في نظم
 القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة والاسلوب يختص بمعنى آخر من
 الشرف ثم الفوائد والحوائث والمباديء والمثاني والطوالع والمقاطع والوسائط
 والفواصل ثم الكلام في نظم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل ثم في الكثير
 والقليل ثم الكلام الموشح والمرصع والمفصل والمصرع والمجنس والموشى
 والمحلى والمكمل والمطوق والمتوج والموزون والخارج عن الوزن والمتمدل
 في النظم والمتشابه فيه ، ثم الخروج من فصل إلى فصل ووصل إلى وصل
 ومعنى إلى معنى ومعنى في معنى ، والجمع بين المؤتلف والمختلف والمتفق
 والمتسق ، وكثرة التصرف وسلامة القول في ذلك كله من التعسف وخروجه
 عن التعمق والتشدد وبعده عن التعمل والتكلف والالفاظ المفردة ، والابداع
 في الحروف والادوات كالابداع في المعاني والكلمات ، والبسط والقبض
 والبناء والنقض ، والاختصار والشرح والتشبيه والوصف وتمييز الابداع من
 الاتباع كتمييز المطبوع عن المصنوع والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعمل
 وأنت تبين في كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على ممت شريف
 ومرقب منيف ، يهر إذا أخذ في النوع الربى والأمر الشرعي والكلام

الالهى الدال على أنه يصدر عن عزّة المكوت وشرف الجبروت وما لا يبلغ الوهم مواقفه من حكمة وأحكام واحتجاج وتقدير واستشهاد وتقريع واعذار وانذار وتبشير وتحذير وتنبيه وتلويح واشباع وتصريح وإشارة ودلالة وتعليم أخلاق زكية وأسباب رضية وسياسات جامعة ومواعظ نافعة وأوامر صادقة وقصص مفيدة وثناء على الله عز وجل بما هو أهله وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه وأخبار عن كائنات في التآني صدقت وأحاديث عن المؤتلف تحققت وفواه زاجرة عن القبائح والفواحش وإباحة الطيبات وتحريم المضار والنجاسات وحث على الجليل والاحسان وتبجده فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج ونظم أنيق ومعرض رشيق غير متعاص على الاسماع ولا مغلق على الافهام ولا مستكره في اللفظ ولا متوحش في المنظر غريب في الجنس غير غريب في القبيل ممتلىء ماء ونضارة ولطفا وغضارة يسري في القلب كما يسري السرور ويمر الى مواقفه كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب جموح على المتناول المنتاب كالروح في البدن والنور المستطير في الافق والغيث الشامل والضياء الباهر « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » من توهم أن الشعر يلحق شأوه بأن ضلاله وصح جهله ، اذ الشعر صمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس وضرب الشيطان فيه بسهمه وأخذ منه بحظه ، وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلاً وأقرب مأخذاً وأسهل مطلباً ولذلك قالوا فلان مفحم فأخرجوه مخرج العيب كما قالوا فلان عبي فأوردوه مورد النقص

والقرآن كتاب دل على صدق متحملة ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها وبرهان شهد له براهين الاولياء المتقدمين وبينه على طريقة ما سلف الأولون

تحدّاهم به اذ كان من جنس القول الذي زعموا انهم أدرّ كوا فيه النهاية وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج والوصول الى أعلى مراتب الطب فجاهم بما بهرهم من احياء الموتى وبراء الاكهم والأبرص، وكما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم، وكما سخر لسليمان من الرياح والطير والجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة وبدائع من اللطف، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الاول والاخر وقوفا واحداً ويبقى حكمها الى يوم القيامة

انظر وفقك الله لما هديناك اليه وفكر في الذي دللناك عليه، فالخلق منهج واضح والدين ميزان راجح، والجهل لا يزيد إلا غم ولا يورث إلا فساداً. قل الله عز وجل (٣٩: ٩): «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب» وقال (٤٢: ٥٢): «وكذلك أوحيانا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا» وقال: (٢: ٢٦): «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً» وعلى حسب ما آتي من الفضل وأعطى من الكمال والعقل تقع الهداية والنبين فان الامور تتم بأسبابها وتحصل بآثارها، ومن سلبه التوفيق وحرم الرشاد والتسديد، فكأنما خرج من السماء فتخطفه الطير أو نهوى به الريح في مكان سحيق لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت، وقل رب زدني علماً، وقل رب أهوذك من كهرزات الشياطين. وان ارببت فيما بيناه فازدد في تعلم الصنعة وتقدم في المعرفة فسيقع بك على الطريق الارشد ويقف بك على الوجه الاحمد، فانك اذا فعلت ذلك أحطت علماً وتيقنت فهماً

ولا يوسوس اليك الشيطان بانه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية وأرجح منك في الفصاحة أقوام وأقوام ورجال ورجال فكذبوا وارتابوا ، لان القوم لم يذهبوا عن الاعجاز ولكن اختلفت أحوالهم : فكانوا بين جاهل وجاهد وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات وحائر عن النظر في الدلالات ، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان وغاوت تحت حباله الشيطان ومقدوف بخذلان الرحمن . وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة . وهلا جعلت بازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري في حنن اسلامه وكمب بن زهير في صدق ايمانه وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا . على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر زاخر . وقد بينا أن لا اعتصام إلا بهداية الله ولا توفيق إلا بنعمة الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فتأمل ما عرفناك في كتابنا وفرغ له قلبك واجمع له لبك ، ثم اعتصم بالله يهdek وتوكل عليه يغفك ويحرك ، واسترشد به رشدك ، وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل

فهرس

صفحة

٣	مقدمة الفشر
٤	ترجمة المؤلف
٩	خطبة المؤاف
١٣	فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن
١٦	في أن القرآن لا يحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى
١٧	في أن القرآن آية كافية في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره
٢٠	فصل في الدلالة على أن القرآن معجز
٢١	التحدّي الى القرآن وعجز بلغاء العرب عن أن يأتيوا له بمثل
٢٧	انما احتيج الى التحدّي لاقامة الحجة واظهار وجه البيان
٢٨	تفاوت الناس في ادراك الاعجاز ومعرفة وجه دلالة
٢٩	اعتراف بلغاء العرب بمعجزهم عن مثل بلاغة القرآن دال على عجز غيرهم
٣١	صوارف العرب عن الاسلام في بداية الدعوة
٣٢	هل كانت المعارضة ممكنة ومنع منها الصرفة، أم الذي منع منها هو الاعجاز
٣٣	هل غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز أيضا؟
٣٦	فصل في جملة وجوه اعجاز القرآن :
٣٦	١ - الاخبار عن الغيوب مما لا يقدر عليه البشر
٣٧	٢ - أمية النبي ﷺ وأنه لم يقرأ كتب الاقدمين وسيرهم
٣٨	٣ - أن القرآن متناو في البلاغة الى الحد الذي يعلم به عجز الخلق عنه
٣٨	خروج القرآن في جملته عن المعهود من نظام جميع كلام العرب

- ٣٨ أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع
- ٣٩ أن بديع تأليفه لا يتفاوت رغم ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها
- ٤١ أن كلام الفصحاء يتفاوت في الفصل والوصل والعلو والنزول الخ
- ٤١ أن نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة يخرج عن عادة كلام المخلوقات
- ٤٥ أن الذي ينقسم عليه الخطاب من الوجوه التي توجد في كلام العرب موجود في القرآن
- ٤٥ أن لطف التعبير القرآني عن الأحكام والرد على الملحد مما يتعذر على البشر
- ٤٦ في أن الكلمة القرآنية إذا تمثل بها في تضاعيف كلام كثير كانت واسطة عقده
- ٤٧ الحروف التي في أوائل بعض السور
- ٤٩ سهولة أساليب القرآن وكونها غير مطموع أن يقدر البشر عليها
- ٥٢ فصل في شرح ما بيننا من وجوه اعجاز القرآن
- ٥٢ الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله
- ٥٣ اخباره عن قصص الاولين وسير المتقدمين
- ٥٣ الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والوصف
- ٥٤ فصل في نفي الشعر من القرآن
- ٥٦ أن الفصحاء حين أورد عليهم القرآن لم يكونوا يعتقدونه شعرا
- ٥٨ ما في القرآن من كلام موزون
- ٥٩ فصل في نفي السجع من القرآن
- ٦٢ فصاحة القرآن لا يجوز أن يقع فيها سجع موصوف بالاضطراب
- ٦٤ اعادة ذكر القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة دليل على الاعجاز
- ٦٥ العرب ونظمها الشعر
- ٦٧ رجوع الى مذهب القائلين بالصرقة

- ٦٩ فصل في ذكر البديع من الكلام
- ٦٩ هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع
- ٧٠ كلمات من البديع مأثورة عن الصحابة وفصحاء العرب
- ٧٢ أنواع من البديع في شعر امرئ القيس وغيره
- ٩٥ في أن البديع شيء ووجوه الاعجاز في القرآن شيء آخر
- ٩٧ في أنه لا سبيل إلى معرفة اعجاز القرآن من البديع لأنه ليس فيه ما يخرق العادة
- ٩٨ فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن
- ١٠٥ امكان تشابه أساليب الشعراء والكتاب
- ١٠٩ تعريف البلاغة عند بعض الأمم
- ١١٠ خطبة نبوية « توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا »
- ١١٠ « ان لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم »
- ١١٠ « ان أحسن الحديث كتاب الله »
- ١١١ « في أيام التشريق ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »
- ١١٢ « يوم فتح مكة كل مائرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي »
- ١١٢ « بالخيف » فضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها »
- ١١٣ « ألا ان الدنيا خضرة حلوة »
- ١١٣ كتاب نبوي إلى ملك فارس
- ١١٣ « إلى النجاشي »
- ١١٤ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية
- ١١٤ في أن مقارنة الكلام النبوي بالكلام القرآني تدل على اعجاز القرآن
- ١١٥ خطبة الصديق الاعظم « وليت عليكم ولست بخيركم »

- صفحة -

- ١١٥ عهد أبي بكر الى عمر رضي الله عنها
 ١١٦ كتاب أبي عبيدة ومعاذ بن جبل الى عمر رضي الله عنهم
 ١١٧ عهد من عهد عمر رضي الله عنه
 ١١٨ خطبة عثمان رضي الله عنه « ان لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاهة »
 ١١٩ كتاب عثمان الى علي حين حصر رضي الله عنهما
 ١١٩ تأبين علي أبا بكر رضي الله عنهما لما قبض
 ١٢١ خطبة علوية « ان الدنيا قد ادرت وآذنت بوداع »
 ١٢١ « ما خلق امرؤ عبثاً فيلهو »
 ١٢١ كتاب علي الى ابن عباس وهو بالبصرة رضي الله عنهم
 ١٢٢ كلام لابن عباس رضي الله عنهما
 ١٢٢ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه
 ١٢٣ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
 ١٢٤ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
 ١٢٤ خطبة للحجاج بن يوسف في أهل العراق
 ١٢٤ خطبة لقس بن ساعدة الايادي
 ١٢٦ خطبة لأبي طالب
 ١٢٦ استفتاح المؤلف أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الأديمين
 ١٢٨ في أن كلام مسيلة أخس من أن يشتغل به
 ١٣٠ نقد معلقة امرئ القيس وبيان عوارها في جانب اعجاز القرآن
 ١٤٧ آخر نقد معلقة امرئ القيس
 ١٤٨ الامثلة على أن نهج القرآن ونظمه تنبيه العقول في جهته ومخار في بحره
 ١٦٥ الآيات قسمان: ما يتم بنفسه أو بنفسه وفصلته ، وما يشتمل على كلمتين أو كلمات

- ١٦٦ الاعجاز في بعض الآيات يقع في تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى
١٦٧ البلاغة في آيات الأحكام
١٧٣ في أن جنس الشعر لا يعارض نظم القرآن
١٧٥ نقد أجود قصائد البحري « أهلاً بذكلكم الخيال المقبل » وبيان عوارها
١٨٩ آخر نقد قصيدة البحري اللامية
١٩٢ الإشارة إلى مطاعن الملاحدة في القرآن
١٩٥ فصل هل عجز أهل العصر النبوي عن المعارضة يقتضي عجز من بعدهم ؟
١٩٦ فصل في التحدي
١٩٨ فصل في قدر المعجز من القرآن
٢٠٠ في أن الكلام يقع فيه الأبلغ والبلوغ
٢٠١ فصل في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة ؟
٢٠١ فصل فيما يتعلق به الإعجاز
٢٠٢ فصل في وصف وجوه من البلاغة
٢٠٤ الاستعارة في القرآن
٢٠٥ التلاؤم في القرآن وأن بعض الناس أحسن إحساساً به من بعض الفواصل
٢٠٦ المناسبة ، والتصريف ، والتضمين
٢٠٧ حسن البيان
٢١٣ الإيجاز والبسط
٢١٤ تفاوت الناس فيما يتوصل إليه من البيان بالتعلم
٢١٥ هل يجوز أن يقال إن بلاغة القرآن هي أقصى ما يلائمه البشر من البلاغة ؟
٢١٦ فصل في حقيقة المعجز
٢١٩ فصل في كلام النبي ﷺ وأمر تتعلق بالإعجاز
٢٢٣ فصل من شرط المعجز أن يسلم أنه آتى به من ظهر عليه
٢٢٤ فصل متى عظم محل الشيء فقد يكون الاسهاب فيه عيباً

خزانة الأدب

ولب لباب لسان العرب

وهو شرح على شواهد شرح الكافية للرضي

تأليف

عبد القادر بن عمر البغدادي

طبعت على نسخة العلامة الشنقيطي (رقم ١ نحو ش بدار الكتب المصرية) وهي منقولة من نسخة المؤلف
وحليتها بتصحيحات العلامة الجليل صاحب السعادة الاستاذ احمد تيمور باشا رحمه الله عليه
وتصحيحات وتعليقات المحقق الكبير الاستاذ عبد العزيز البعني الراجكوتي
استاذ آداب اللغة العربية في جامعة عليكرة الاسلامية بالهند

صدر الجزء الثالث منها في ٤٤٠ صفحة مطبوعا في مطبعتنا السلفية
على مثل الورق النفيس الذي طبعتنا عليه الجزء الاول والثاني
وقد فتحنا باب الاشتراك في الجزء الرابع بعشرة قروش
أيضا كما كانت الحال في الاجزاء السابقة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00507858

كتب اسلامية ولغوية يجب أن لا تخلو منها مكتبة قيمة

١٠	الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض
٢٥	شرح الشفاء لملا على القاري
٥٠	علل الحديث لابن أبي حاتم
٢٠	مبارق الازهار شرح مشارق الانوار
١٢	شرح العقائد المضدية وحواشيها
٢	المقيدة الواسطية لابن تيمية
٤	مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ اهل الجاهلية
٦٠	نهاية السؤل شرح منهاج الاصول للاسنوي بحاشية الشيخ بخيت
٢٥	شرح المنار وحواشيه في الاصول
١٠	كتاب الخراج ليعقوب بن آدم القرشي
٢٥	مجمع الأنهر شرح ملتقى البحر
٢	نظرية تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها
١٠	شرح شرعة الاسلام بهامشه تسم رسائل للبركوي
٢٥	كشف الحقائق شرح كنز الدقائق للافغاني
١٥	شرح منية المصلي
٢٠	الفتاوى الخيرية
٥	فتاوى النووي
٣	نظام النفقات في الشريعة الاسلامية للعلامة الشيخ أحمد بك ابراهيم
٢	تقد علمي لكتاب الاسلام وأصول الحكم
١٠	لسان العرب - تحت الطبع - يباع بالجزء
١٠	خرانة الأدب للبغدادي - تحت الطبع - يباع بالجزء
٧	الاضداد الانباري
١٠	المزهر للسيوطي
٥	الملاحن لابن دريد